د. فولف و 9 نساء

زهير أبو سعد

زهير أبو سعد

عنوان الكتاب: د. فولف و 9 نساء
اسم المؤلف: زهير أبو سعد
تصميم الغلاف: معتزّ عدنان العزّام
تدقيق لغوي ومراجعة: منى سويد

الطبعة الأولى 2017 م

© جميع حقوق الطبع والنشر
محفوظة للكاتب زهير أبو سعد

رقم التسجيل: 7335 /2017
Literar-Mechana

طُبع في مطبعة Expressprint

إِهدَاء

إلَى أُمّي

إلَى نِسَاء العَالَمِ عَامّة

و إلَى المَرْأةِ الغَربِيَّة خاصَّة

إلَى تِلْكَ الأُنثَى كَأَمّ و أَخت و عَالِمة و مُتَعَلّمة

إِلَى المَرأة النِّمسَاوية التِي وَقَفَتْ جَنبًا لِجَنب لِبِناءِ

مُجتَمعٍ يَزْهُو بِالحَضارَةِ و القِيَم و الأخلَاق ..

إلَى جُمْهورِيَّة النِّمسَا و عَاصِمَتِها فيينَا مَدِينَة

المُوسيقَى و الكَمَنجَات ..

فِيينَا..

نُوتَةُ الضَوءِ..

وَتَرُ الكَمنجَاتِ الصَباحِيَةِ..

مَعزُوفَةُ الطُرُقَاتِ الحَافِيَةِ في آخرِ قَافِيَةٍ

تَشرذُقُ النُورِ على سِكَكِ مَحطّاتِ المُوسِيقى..

لا .. آنسَتِي..

لا .. يا عَاصِمَتِي..

لا تَعزفِي لِي اشتِهَاءَ الشِتَاءِ لِقَضمِ شَفتَيكِ..

لا تَرقُصِي على انقَاضِ عِطرِ وَداعِ السَرابِ..

لم تَعتَد أرحَامُ الفَجرِ على هَذَا الكَمِ الهَائِلِ مِنَ الكَمَالِ..

أُصمُتِي آنِسَتِي..

و أصمِتِي هَذَا الجَمَالَ فِيكِ..

وَقَفَ الفَجرُ على النَوافِذِ المَكسُوَةِ بِالنُعَاسِ..

يَطرُقُ على زُجَاجِ النَومِ بِأصَابِعِ جُنُونِهِ..

يَهمِسُ في أُذُنِ الصَباحِ المُبَلَلِ بِالنَدى..
مُتجَسِساً على ثَدِيَيِ الدَانُوبِ المُلتَهِبِ خَرِيراً..
كُلُ شَيءٍ في هَذهِ العَاصِمَةِ يَعزِفُ لِلسَمَاءِ..
يُبرِمُ صَفقَةَ حُبٍ لِلمَطَر..
يَعقدُ مَع مِلحِ الشُروقِ خُيوطَهُ المجُنونةِ
أيةُ مَدِينَةٍ هَذهِ يا تُرى.. !!
مَدِينَةٌ تَسلُبُ المُهَجِ بِألَمِهَا و أمَلِهَا..
على مَسرحِ صَبَاحِهَا يَعزِفُ الرَاحِلونَ إلى لَحدِ السُطُورِ سِمفُونِيَةَ يَومٍ جَدِيدٍ ، يَومٌ إن خَطى نَحوَ مَنَبَعِ العَاصِمَةِ العتِيقَةِ .. صَدِقني بِأنَهُ لَن يَعودَ..
إن عَادَ .. فَسَيعودُ مُحمَّلاً بِحَقائِبِ الذَاكِرَةِ..
و بِوَجَعِ الكَمَانَاتِ و أحجَارِ البِيانو المُسَجَاةِ في كَهفِ الخُرافاتِ..
و بؤسِ الكَلمَاتِ النُحَاسِيَةِ ، كَقِبابِ الكَنَائِسِ الغَارِقَةِ بِالغُيومِ الصَدِئَةِ..

إذَاً هُنَا فِيينَا :

هَذهِ الآنِسَةُ بِصدرِهَا المُتَسِعِ لِلحُبِ ، التي يَحلو لَكَ الرَقصُ على مَسَاحَاتِهَا ، عَاصِمَةٌ تَهوى الرَقصَ و تُراقِصُكَ على اوبِرا حَدَائِقها..

السَاعَةُ 00 : 06 .. بِتوقِيتِ العِشقِ..

بِتَوقِيتِ تَثاؤبِ زُهُورِ شْتاد بارك..

بِتَوقِيتِ تَمَطِي أشجَارِ فُولكس غَارتِن..

بِتوقِيتِ انبِجَاسِ النَدى في جَنَةِ بُورغارتِن..

تَحبو خُيوطُ الشَمسِ على نَبَضَاتِهَا مُجَرَدَةٌ مِنَ الصَوتِ..

و يَزحَفُ الضَوءُ على سَرابِ الطُرُقاتِ الحَجَرِيَةِ بِلا تَذكَرَةٍ زَمَنِيَةٍ و لا حُجُوزَاتٍ ضَبابَيَةٍ..

لا مَكَانَ لِلشَمسِ في عَاصِمَةِ المَشَاعِرِ و الشِتَاءِ ..

لا وجُودَ للضَوءِ على رَحَابَةِ مَعزُوفَةِ الرَاحِلِينَ إلى السَرابِ..

مَدِينَةٌ ضَوءُهَا مَقَامَاتٌ غِنَائِيَةٌ ، و شَمسُهَا أوركِسترا جُنُونِيَة..

مَدِينَةٌ اصطَفَ فِيهَا مَن طَوت مَقطُوعَاتُهم ثَرى الهَواءِ قَبل أن يَبتَسِمَ الصَباحُ و بَعدَ أن يَأفِلَ الظَلامُ..

هَكَذَا هِيَ دَائِمَاً سَعِيدةٌ ، خَالِيَةٌ مِن تَعَاسَةِ الخُضُوعِ للأمُسِياتِ السَوداءِ ، يُستَقبَلُ مَولُودهُم بِتَعمِيدِهِ بِالغِنَاءِ ، و تَرتَاحُ الأرواحُ تَحتَ التُرابِ بِآخِرِ مَقطُوعَةٍ لِلكَمَانِ العَذبِ..

لا حِدَادَ يَجمَعُهُم ، و لا دُمُوعَ تُغرِقُهُم ، كُلُ مَن فِيهَا مُتَبرِجٌ بِرَفاهِيَةِ السَعَادَةِ ، و إنِ لَمْ يَكُن سَعِيدًا فَلَهُ بِالآخَرِينَ أُسوَةٌ حَسَنَةٌ..

مَدِينَةٌ لَمْ تَخشَى الصَمتَ..

بَل رَفَعت صَوتَهَا مَعَ الألمِ..

مَعَ الأملِ..

مَعَ السَعَادةِ..

مَع التَعَاسَةِ..

هُنَا و في هَذهِ المَدِينَةِ يَغفو أحدُ الشَوارِعِ المُزدَحِمَةِ بِضَجِيجِ المَارَةِ ، الذِي يُطلِقُون عَلِيهِ : شَارع مَارِيا هِلفَر..

لَيسَ فَقط لِلشَارعِ ضَجِيجٌ و حَسب.. !

عَزَفَ المُنَبه لَحنهُ الكِلاسِيكِي في أحدِ المنَازِل التي تَعلو اِحدى الأبنيةِ القَدِيمةِ ذَاتِ الأدراجِ اللولَبِيةِ ، و الجُدرانِ الوَرَقِيةِ بِتكَاليفَ بَاهِظةِ الهَيبَةِ ، خَلفَ أوراقِهِ الجِدَارِيةِ يَكْتُبُ التَارِيخُ مَلامِحَ أشبَاحٍ سَاروا مِن مَوارِبِ الكَلمَاتِ ، كَانت لَيالِيهم مُطوقَةٌ بِالكُؤوسِ ، نَشوتُهم كَرقَصَاتِ البَجَعَاتِ في بِدَاياتِ الرَبِيعِ ، خَمرَتُهم نَبِيذُ العِنَبِ

الشِتَائي ، سَكرَتُهم التِهَامُ الشِفاهِ النَاعِمَةِ و إذَابَةُ عَسَلِ اللِسَانِ في جَوفِ الرَوحِ..

الطَابِقُ الخامسُ:

رَقمُ الشَقَةِ : 58..

مَنزِلُ الطَبِيبِ النَفسِي : Dr. Wolf ..

يَبعُدُ المُنَبِهُ بِأجراسِهِ الفَاضِحَةِ مَسافة خَمسَةَ عَشر خطوةً سَيراً عَنِ النُعَاسِ..

استَيقظ دكتُور..

استَيقظ سَيدِي..

السَاعةُ السَادِسَةُ صَباحَاً بِتَوقِيتِ جُنونِ المُراجِعِينَ إلى عِيادَاتِكَ ، إلى مَصحِّكَ النَفسِي..

لا تَقلَقوا سَوفَ يَستيقظ..

إنهُ كَعادَتهِ يَعودُ إلى مَنزِلهِ في السَاعَةِ التَاسِعَةِ مَسَاءً..

يَملأُ كأسَهُ الكِريستَالي المُبهَرَجِ بِزَخَارِفهِ العَتِيقَةِ ، بِقِطَعِ الجَلِيدِ المُكَعبَةِ ، و يُفرِغُ فِيهِ مَشروبَ الويسكِي الأرستُقراطِي ، و على صَوتِ عِملاقَةِ الصَوتِ البَارِيسِي Edith Piaf .. تَقُومُ قِيامَاتُهُ ، و مَعَ أنَ طَبِيبَنَا في ضِيافَةِ الخمسين ، إلا أنَّهُ يَتَمتَعُ بِروحِ الاكتئَاب و عَدمِ المُبالاةِ ، و أخذِ الحَياةِ مَأخذ :

عَلِيكَ أنْ تَعِيشَ يَومَكَ .. و تَنسَى المَاضِي بِشُربِ الكُحُول..

دَائِمَاً القَدَرُ يَضحَكُ مِنَ الأمثِلَةِ التِي يَنصَحُ بِهَا نَفسَهُ و لا يَنصحُ بِهَا غَيرَهُ ، و دَائِمَاً يُحذِّرُ مَرضَاهُ بِعَدَمِ تَجَرُّعِ المَشروباتِ الرُوحِيَةِ ، لِأنهَا تُسَبِبُ متاعِبَ نَفسِيةً زَائِدَة ، رُبمَا تُرافِقُهَا حَالاتُ إعدَامٍ بِغَيرِ قَصدٍ..

إنهُ طَبِيبُ الجُنونِ..

و المَواقِفُ الضَبابِيَةُ ، و التَهورِ الزَائِدِ الذِي يَلحَقُ سَلبَاً على حَياتِهِ الشَخصِيَةِ ، و لأنَهُ يَعِيشُ عَالمَ الدِرامَا ، فَإنّهُ مُنتِجٌ و مُخرِجٌ و مُمَثِلٌ بَارعٌ.. و بَعضُ المَراتِ يَأخُذُ دَورَ الكُومبارسِ ، لُيخَفِفَ مِن حَالاتِ المُراجِعِينَ و مِن جُنُونِهِم المُتَفَاوتِ ، ألا إنَهُ الطَبِيبُ النَفسِيُ المَشهُورُ في الأوساطِ الجُنُونِيَةِ..

طَبِيبٌ على شَاكِلَةِ مُسَكِّنٍ للآلامِ..

أو مُضَادٍ حَيوي.. !!

أو حُقنَةٌ قَاتِلَةٌ تُريحُ المَرِيضَ مِن تَخبُطِهِ

استَيقِظ يا دُكتُور..

وا أسَفَاه لَقَد شرِبَ جُرعَةً زَائِدَةً مِنَ الكُحُولِ..

و رَقَصَ وَحدَهُ كَكُلِ لَيلَةٍ .. كَكُلِ ألَمٍ .. كَكُلِ وَجَعٍ..

وَحدَهَا المُوسِيقى تُرَبِّتُ على قُلوبِنَا لتَخلُدَ الرُوحَ في شُقُوقِ الاختِنَاقِ..

يا إلَهِي .. دُكتُور استِيقظ ..

بَينمَا تَتَقلَبُ عَاصِمَةُ الكَمنجَةِ على شَهيقِ الصَباحِ..

كَانَ المَطَرُ يَعزِفُ مَقطُوعَتَهُ على وَجنَتَي الأبنِيَةِ..

تَارَةً تَتَراشَقُ السَمَاءُ على لَحنِ المَقَامِ الرَطِبِ..

و تَارَةً تُبَدِدُ و تُهَدِدُ مَا تَبقَى مِن سُكُون

بَعدَ بُرهَةٍ مِنَ الإنجِرافِ الصَعبِ في مُنعَطَفِ السُباتِ..

و أخِيراً استَيقَظَ طَبِيبُنَا مِن بَعدِ أن أيقَظَ مُنبِهُهُ سُكَّانَ المَبنَى ، تَفتَحَتِ الأجفَانُ بَعدَ عُسرٍ في الوِلادَةِ ، لِتَبدَأ رِحلتَهُ اليَومِيَةَ ، و الرُوتِينَ المُقرِفَ الذِي سَبّبَ لَهُ حَالَةً مِنَ الفَوضى و التَنَاقُضَاتِ الدَاخِلِيَةِ..

لا زَالَ القَلبُ يَخفِقُ على حَسَبِ جَرَسِ المُنَبِهِ المُرعِبِ ، أزَالِ الغِطَاءِ بِيدِينِ مُخدَّرَتِين و راحَ

يَجُرُ خُطَاهُ بِثِقَلٍ لِإيقَافِ هَذَا الصَخَبِ القَادِمِ مِن جُنُونِ المُنَبِهِ..

هَذِهِ العَاصِمَةُ ذَاتُ الدَوَرانِ المُستَرسِلِ بِالخُطَى ، مَضبُوطَةٌ على خُطَى سُكَانِهَا ، الكُلُ يَشِدُ أوتَارَ الوَقتِ هُنَا ، و كُلٌ على حَسَبِ هِمَّتِهِ و مِهنَتِهِ و هِوايتِهِ..

فَعَقارِبُ السَاعةِ هُنَا عِبارَةٌ عَن أوركسترا لا تَتَوقَفُ عَنِ العَزفِ ، حَتى سُكُونِ الذَاتِ في مَكَامِنِ النَفسِ البَشَرِيَةِ تُقِيمُ في حِلِّهَا و تِرحَالِهَا أُمسيَةِ الأوبِرَا العُظمَى ، بِشَرطِ أن تَضبِطَ وَقتَكَ على مِزاجِ و تَقلُباتِ العاَصِمَةِ المُحَصَنَةِ بِالنُوتَاتِ و المَقَامَاتِ..

جَرَّ طَبِيبُنَا أثقَالَهُ المُنهَمِكَةِ بِبَقايَا ســـكرٍ حَتى وَصَلَ إلى المُنَبِهِ ، و أغَلقَ هَذَا العَويلَ الذِي أضحَى عَادَةً لِكُلِ يَومٍ..

اتَجَهَ إلى حَوضِ المَاءِ في حَمَّامِهِ الكِلاسِيكِي و مَلأَهُ بِالمَاءِ ، و رَاحَ يُنَظِفُ ما تَبقَى مِن حُطامِ أسنَانِهِ ، و كَعادَتِهِ مِذياعُ الصَباحِ على الرَفِ المُواجِهِ لِلحَوضِ ، أشعَلِ فَتِيلَ المِذياعِ على التَرَدُدِ المَحلِي لمَدِينَةِ فِيينَا

..Guten Morgen

المُوسيقى الصَباحيَة التي يَفتَتِحُ بِهَا النِمساوِييونَ شُروقَهُم:

صَباحُ الخَيرِ أعِزَّائِي المُستَمِعينَ..

صَوتُ المُذِيعَةِ ، مَعَ حَفِيفِ فُرشَاةِ الأسنَانِ ، مَعَ خَرِيرِ المَاءِ ، مَعَ ابتِلاعِ الحَوضِ لِلمِياهِ ، كُلُهَا عَمَلِياتُ تَجمِيلٍ و طُقوسٌ صَباحِيَةٌ ، لِلاستِعدادِ لِمواجَهَةِ الحَياةِ و صُعُوباتِها..

خَلَعَ ثِيابَهُ ، و حَشى غُليونَهُ بِالتِبغِ ، و غَمرَ جَسَدهُ بالمَاءِ..

و أشعَلَ غُليونَهُ نَخباً لِلحَياةِ .. نَخباً لِيومٍ جَدِيدٍ..

و رَاحَ يَنفُثُ لِصَاحِبَةِ الحُنجُرَةِ المَجبولَةِ بِذَبذَبَةِ المِذياعِ دُخَانَ الاِكتِئابِ..

هَكَذَا هُوَ دَائِمًا كَالإيقاعَاتِ النَائِمَةِ..

لا حَياة ، لا زَوجَة ، لا أولاد..

هُو الذِي يَجِدُ لِكُلِ شَرخٍ مِبرداً و خَيطاً..

يُعالِجُ النُفوسَ المُتَخبِطَةَ و الأرواحَ المُتألِمَةَ ، لا شَيءَ يُعجِزُهُ سِوى عَجزِهِ أمَامَ مُعَالجَةِ اضطِرابَاتِهِ الشَخصِيَةِ..

هُوَ سَيدُ الفَشَلِ العَاطِفي..

هُوَ سَيدُ التَخبُطَاتِ القَلبِيَةِ..

لم تُعجِبهُ أُنثَى ، و لم تُعجَب بِهِ أُنثَى و كأن بينَهُ و بينَ الحُبِ بَرزَخٌ لا يَبغِيان ، كَانتِ النِسَاءُ لا يأتين إِليهِ إلا مُصَاباتٌ بِانتِكَاساتٍ عَاطِفِيَةٍ أو انكِسارَاتٍ نَفسِيَةٍ ، و كَانَ يَخَافُ أن يَتَورَط

بِعلاقَةٍ مَعَ إحدى المُراجِعَات أو القَرِيباتِ أو الغَرِيباتِ..

خَوفًا مِنَ العَدوى النَفسِية..

لا أعَلمُ مَنِ المُصَابُ بِأمراضٍ نَفسِيَةٍ !

الطَبِيبُ .. أم الذِي يَقصِدَهُ مِن مُراجِعينَ.. !!

لا عَلِينَا..

تَقول المُذِيعَةُ:

هُنَا إذَاعَةُ .. Ö3 : سَوفَ نَترُكُكُم مع المُغنِي : Klaus Hoffmann

و نَتمنى لَكُم يَومَاً سَعِيداً..

بَينمَا تَرَكَتِ المُذِيعَةُ آذانَ المُستمعِينَ لحُنجُرَةِ المُغنَي ، تَركَ طَبِيبُنَا حَوضَ الاستحمَامِ و رَاحَ يُجَفِفُ جَسَدُه الذِي استباحَهُ المَاءُ السَاخِنُ ، عَارٍ أمَام الشَاشَةِ الزَمنِيَةِ لِلشِتَاءِ ، مُتجَرد لِلصَباحِ

البَارِدِ ، بَدَأ بِارتِدَاءِ ثِيابِهِ ، و بَدأت فِيينَا تَرتَدي خطَواتِ سُكَانِهَا..

قَمِيصٌ أبَيضٌ ، بِنطَالٍ أسَوَدٌ ، و أنَاقَةٌ عَارِمَةٌ بِالذَوقِ الأنيقِ المُرَتَبِ ، و رَبطَةِ عُنقٍ قَد شَدّ وِثَاقَهَا ، كَما شَدتِ السَمَاءُ لِحافَ غُيومِهَا ، وَضَعَ سَاعتَهُ السُوِيسريَةَ على مِعصَمِهِ الأيسَرِ ، و لِلعِطرِ نَوعٌ آخَـــرُ للبِدايات..

هُوَ مِن عُشَاقِ الأنوَاعِ العِطرِيَةِ الارِستُقرَاطِيَةِ : جِيرلان دِيربي..

عِطرُهُ ذَو الجَاذبِيَةِ الخُماسِيَةِ..

هَذا العِطر ُبِالنِسبَةِ لَهُ كَرِيزمَةُ اندِهَاشٍ لِلتمَايلِ على شَهِيَةِ الآخرِينَ و خاصةً النِسَاء ، و كَانَ يَعتَقِدُ بِأنَ استقطَابَ القُلوبِ و المُخَدرَ الوَحِيدَ لِلعَواطِفِ هُوَ العِطرُ المُنَاسِبُ لِلرَجُلِ المُنَاسِبِ ،

فَهَذَا يَعنِي بِأنَ الفَشَلَ العَاطِفيَ سَبَبهُ سُوءُ اختِيارِكَ لِلعِطرِ..

حَانَ مَوعِدُ الخُروجِ إلى العَمَلِ..

ارتِدى مِعطَفَهُ ذُو الفَرُو الرُوسِي ، و لِكَشمِير الفَضلُ الكَبيرُ في تَصمِيمِهِ ، و أغلقَ بابَهُ..

تَحرَرَ مِنَ الكَبتِ المُعتَقِ لمَنزِلِهِ ، و وَدعَ ظِلَهُ المُتَمايلُ لِلجُنونِ أعتابَ بَيتِهِ، لا تَتَمايل سَيدي إن كَانت بِدَايَتُكَ مُتَمَايلَةً فَالنهَايَةُ إلى الهَاويَةِ..

بينَهُ و بِينَ أولِ بِدَاياتِ الزَحفِ إلى السُلَمِ ظِلُ امرَأةٍ ، إنهَا جَارَتَهُ يوليا.. Julia

جَارَتَهُ المُهَذَبَةُ ، صَاحِبةُ الصَدرِ المُنتَفِخِ ، و الشِفاهِ الرَقِيقَةِ ، شِفاهٌ على مَقَاسِ قَرَفِهِ ، إنَهُ يَكرَهُ الشِفاهَ الخَافِتَةَ التي تُشبِهُ شَوارعَ سَالزبورغ ، و مَعَ أنَ يوليا ثَلاثِينِيةُ الهَوى إلا أنَ قَلبَهَا يَعشَقُ الشَيبَ المُهَذَبَ ، و الدِمَاءَ المُخَثَرَةَ خَلفَ جُعودةِ

الرِجَالِ ، لَقد حَاولَت بِكَافَةِ عَتادِهَا المُبهَرَجِ أن تَسرِقَ لُبَ جَارِهَا الطَبِيبِ..

أُنثى مُحصَنةٌ بِثَدِيينِ عَارِمِينِ بِالشَهوَةِ..

و عَينَانِ خَضراوانِ ، و بِكُحلٍ خَافِتٍ فِيهِ شَيءٌ مِنَ النِفَاقِ..

و شَفتَانِ وَاسِعتَانِ ، لا يَشتهِيهمَا فَأرٌ..

هَذَا مَا كَانَ يَتهَربُ مِنهُ طَبِيبُنَا ، و كَلَ مَا رَآهَا بَغتَةً ، تَدُبُ في جَوفِهِ عَمَلِيَةُ الانسِحَابِ التَكتِيكِي و التَهرُبِ الجَبانِ..

و يولِيا .. آه مِنك يا يولِيا !!

حَاولَتْ إغرَائَهُ بِكُلِ مَا أُوتِيَ الشَغَفُ مِن اشتِهَاءٍ ، بِعِطرِهَا النَاعِمِ ، بِصدَرِهَا المُنتَفِخِ لِلالتِهَامِ ، و خَدَّيهَا الصَيفِيانِ ، و بِطِلاءِ أظَافِرِهَا ، و بِفَتحَةِ قَمِيصِهَا السَمَاوي ، و بكَعبِهَا الشَاهِقِ لِلانزِلاقِ اللامِعِ ، و أما مَا أفسَدَ كُلَ هَذِهِ البَهرَجَةِ تِلكَ

الشَفتَانِ التي انطفَئَ فِيهَما ذَلِكَ الانتِفاخُ ، و خَفتت التَوسِعَةُ الحَدودِيَةُ لهُمَا ، فَمَا كَانَت مِنَ الشِفاهِ إلا أن اِضمَحَلت و ذَبُلت ، كالتِي فَقدت أسنَانهَا تَمَامَاً..

يُحَاولُ طَبيبُنَا التَهرُبَ مِن شَبَحَ الشِفاهِ المُرقَقَةِ ، و لَكن لا مَفَرَ ، فكُلِ يَومٍ تَنتَظِرُ خُرُوجَهُ لِتَعرِضَ مَفَاتِنهَا عَسَاهَا أن تَحظَى بِهِ أو بِلِيلةٍ مِن لَيالِيهِ الجُنُونِيَةِ ..

ـ صَباحُ الخَيرِ دُكتُور..

يا للقَرَفِ ، إنَها هِيَ..

التَفَتَ إليهَا بأطرافِ مَلامِحِهِ..

ـ صَباحُ الخَيرِ يولِيا .. كَيفَ حالُكِ !؟..

لَقَد فَتَحَ لَهَا بَاباً مِنَ المُجَامَلَةِ الكلامِيَةِ في سُؤالِهِ ، بِكَيفَ حَالُكِ.. !!

اقتَرَبَت إليهِ بِحركَاتٍ مَاكِرَةٍ ، كَمَا يَقتَرِبُ الثَعلَبُ مِنَ الضَحِيَةِ ، و رَاحت عَن بُعدِ أميالٍ و مِن غَيرِ أن يُلاحِظَ ، تَتَجَسَسُ على عِطرِهِ ، تَختَلِسُ تَحاشِيهِ عَن رُؤيَتِها لتَلتَهِم بِأنفِهَا عَبَقَهُ الصَباحِيّ ، تُريدُ أن تَبتلِعَ ظِلَّهُ مِن خَلفِهِ ، نَطَقَت سَيدَةُ العَطَشِ قَائِلَةً:

ـ أنَا بِخَيرٍ شُكراً لَكَ دُكتُور .. و آمَلُ أن تَكون أنتَ بِخَيرٍ أيضَاً.. !!

شَعرَ بِرائِحَةِ فَمِهَا ، شَيءٌ مِن عُفونَةِ القَهوَةِ ، بَقَايَا مِن أشياءِ كَعكَةٍ ، و صَوتٌ لَهُ أربَعُ ألسِنَةٍ ، تسَيرُ على مِضَخَاتِ السَمَعِ لِتُوقِعَ بِفَرِيسَتِهَا مُرتَعِشَةً خَلفَ أقفَاصِ النَشوَةِ..

إنهَا أنثَى البَراكِينِ المُتَصارِعَةِ على صَدرِ رَجُلٍ لَمْ تَعشَقهُ أنثَى قَطْ ، تُبرِزُ جَحِيمَهَا أمَامَ رِجَالِ الثَلجِ لتُذيبَ لُبَهُم ، و تُخمِدَ البَرد في أعناقِ الجِياعِ لِشَبحِ أنثَى قَد مَرَّت من هَا هُنَا..

طَبِيبُنَا أوقَفَهُ الهَواءُ الصَادِرُ مِن أعِنَةِ حُنجُرَتِهَا.. و تَرَكَهَا ململِماً لُعَابَهُ في حَلقِهِ مِن بعدِ ابتِلاعِ الرُعبِ في صَدرِهِ قَائِلاً لَهَا:

ـ شُكراً لَكِ عَزِيزَتي .. أنَا بِخَير .. المَعذِرَةُ يَجِبُ عَليَّ الذَهَابُ إلىَ العَمَلِ لقَد تَأخَرتُ .. يَومَاً سَعِيدَاً .. إلى اللقَاءِ..

هَكذا هُوَ دَائِماً يَقطَعُ الرِياحَ بِمَسِيرهِ ، يُمَزِقُ أشرِعَةَ الآخَرِينَ بخَطواتِهِ ، و خاصةً هَذهِ المُتَطفِلَةُ على حَياتِهِ الشَخصِيَةِ ، لَقد فَكّرَ مِراراً و تَكراراً أن يَنتَقِلَ إلى حَيٍّ آخَرَ بِسَبَبِ تَطَفُلِهَا الزَائِدِ ، و إن لَزِمَ الأمرُ الرَحِيلُ إلى مَدِينَةِ لِينز أو أيَةِ مَدِينَةٍ أُخرى فَسَيرحَلُ و يَترُكُ العَاصِمَةَ لهَا و لِشفتَيهَا..

هَبَطَت أنفاسُهُ و هَوَ يَهبِطُ عَبرَ المِصعَدِ الخَشَبِي ، يَخطو بِأنفاسِهِ المُتَثاقِلَةِ ، مُتَخَلِصاً مِن دُودَةِ المَبنَى صَاحِبَةِ الشَفتَانِ الفُضُوليتانِ..

قَالَ في نَفسِهِ:

ـ آآه .. كَم أنتِ مُقرِفَةٌ يا يولِيا!!

السَاعَةُ السَابِعَةُ..

و المَطَرُ يَهطِلُ و يَرشِقُ المَارَةَ..

إنّهَا فِيينَا ، تَستَحِمُ بِحَوضِ السَمَاءِ ، و تَغمُرُ سُكَّانَهَا بِالبَردِ..

حَبِيبَتِي فِيينَا..

أنَا أرتَعِشُ شَغفَاً لَكِ يا سَيدَةَ العَواصِمِ ، و أنقاهَا عِشقاً ، و أرقَاهَا أنَاقَةً ، يا عَاصِمَةَ الأوتَارِ الحَدِيدِيَةِ ، اقرَعي في خَياشِيمِ أرواحِنَا عَبقَ البُنِ ، إنفِضي مِن أشنَافِ خَطواتِنَا رَائِحَةَ الخُبْزِ..

وَصَلَ طَبِيبُنَا إلى البَوابَةِ الكُبرى للمَبنى الذِي على مَا يُعتَقَدُ أنَّهُ شَهِدَ الحُروبَ العَالمِيَةَ ، و لِمتانَتِهِ فَهوَ حتى الآنِ قَائِمٌ و على قَيدِ أعتـــابِ سِمفونِيَةِ العَاصِمَةِ العتِيقَةِ..

إلى أينَ أنتَ ذَاهِبٌ يَا سَيدي ، أُنظُر حَولكَ إنّهَا شِبهُ عَاصِفَةٍ ، عُدْ إلى مَنزِلِكَ لَقد رَدَّ عَليَّ الطِبيبُ قائِلاً :

ـ أنَا على استَعدادٍ أن أذهَبَ إلى الجَحِيمِ ، علي أن أعودَ و أرى وَجهَ يولِيا، دَعْني و شأنِي..

تَحتَ وَقعِ المَطَرِ ، تَعزِفُ السَماءُ لحنَهَا الصَاخِبَ ، حَتى تُكفكِفَ السائِرينَ على مَقطوعَةِ الحَياةِ بِالهُروبِ إلى ظِلالِ المَبانِي و الحَوانِيتِ و المَقاهِي ، البَردُ في كُلِ مَكَانٍ ، يَزحَفُ غَاضِباً ، يُنَقِبُ على القُلوبِ الدَافِئَةِ ، هَيهاتَ أن يَمسَها ، هَيهَاتِ أن يُسكِتَ فَوَرَانَهَا..

جَرى طَبيبُ النُفوسِ التي أصابَهَا مَسُ الشِتاءِ إلى سَيارَتِهِ الارِسْتقرَاطِيَةِ ، حَتى وَصَلَهَا مُبلّلاً مُرتَجِفاً و مُحطَماً كلوحِ جَلِيدٍ ، جَلَسَ خَلفَ مِقوَدِ سِيارَتِهِ يَهتَزُ مِن سِهامِ السمَاءِ الهَاطِلَةِ على عُذرِيَةِ عاَصمَةِ تُسمى :

فِيينا..

ثَوانٍ مِن جَاذِبيَةِ الرُوحِ و تَخمُدُ الاهتزِازَاتُ الجَلِيدِيَةُ ، بِبقايا رَعشَاتٍ مُمتلِئةٍ بِهوى التِبغِ ، رَاحَ يَحشو غُليونَهُ ، بِعودِ ثِقابٍ هَبَّت رِياحُ التَبغِ تَقلُبُ نَقاءَ الهَواءِ سُمَاً تِبغِياً ، سَحَبَ القَلبُ أنفاسَهُ المِئَويَةَ ، لِيُخرِجَ مِن مَكانِ الزَفِيرِ دُخانَهُ المَجبولَ في صَدرِهِ..

حَركاتُ تَراهَا في عينِكَ المُجرَدَةِ طَبِيعِيَةً و لَكِن فيهَا خَفايا من الخَوافي صَدى درامَا تُولوِلُ مَا بينَ المَدى و اللا مَدى..

إنَّهُ مَدَى اللا حُبِ لِلكَمالِياتِ ، جُنونُ اللا حُب لِلمُتمِمَاتِ ، وضَعَ مِفتاحَ سِيارَتِهِ في خَفايا السَيرِ إلى الكَلِمَاتِ ، إلى بِداياتِ النِهاياتِ..

خَالياً مِن مِلحِ الحَياةِ ، مُدَثَراً بِطعنَةِ وَجعٍ ، غَارقاً في قاعِ الشَرابِ المُعتّقِ ، إنَّهُ سُنبُلَةُ الثَوبِ الفَارِغِ مِنَ الذِكرِياتِ ، إنَّهُ نَسمَةُ الهَواءِ المُلوَثَةِ بِغَدٍ

مُلَمعَاً بِالانِتظَارِ ، إِنَّهُ حَالَةُ الاشتهَاءِ بَعدَ فَواتِ الدَهرِ..

سِر سَيدِي على عَجلاتِ التَجاربِ السَماعِيَةِ..

سِر سَيدِي على تَلعثُمِ الحِكَاياتِ في حَظيرَةِ البَقَرِ النَفسِيَةِ..

سِر سَيدِي قبلَ تَبَعثُرِ الوقوفِ على حَظِكَ يا سَخيفَ الحظِ .. اَخْرج مَمَاسِحَ الزُجاجِ و أَزِلْ دُموعَ المَطَرِ عَن زُجَاجِ خَطواتِكَ إلى اللا مُنتَهى..

خَمسُونَ عَامَاً و أنتَ مُحاطٌ بِالكَوالِيسِ المُفلِسَةِ ، أنتَ و إنَاثُ الكُونِ في كَفَةِ شَيطَانٍ ، و الحُبُ الذِي خَسِرتَ في كَفةِ الآلِهَةِ ،لِما لَمْ تَتَزوج يا سَيدي !؟

أتَخافُ مِنْ سَحابِ الإناثِ يا رِمَالَ الخوفِ!!

فَلتَذهب إلى جَحِيمِ خَوفِكَ يا طَبِيبَ الزَوايا المُتشابِكَةِ بِالحَيرَةِ ، كَعُنكبُوتِ الخَزائِنِ المَنهوبَةِ ، تَتَلوى في ذَاتِكَ مُتَحَسِراً و مُتَكبِراً..

وَصَلَ بِسِيارَتِهِ الشَاحِبَةِ و أحلامِهِ التَائِهَةِ و أوهَامِهِ الضَائِعَةِ إلى مَقهَى Café Hawelka

يَا سَيدَ المَقامِ الصدَءِ سِر بِخطواتِ المَطَرِ إلى مَلهَاكَ الفاضِحِ بِغصةِ الصَباحِ ، أسرع بِسنينِكَ التي لَنْ تَعودَ ، إلى هُتَافَاتِ الفَنَاجِينِ و ضَجِيجِ الصُحُفِ الكَاذِبَةِ ، إنَّهُ برِستِيجُ الأحلامِ الضَائِعَةِ مِن فَراغِ العُمرِ..

أتعُجِبُكَ الرُؤوسُ المُنحَنِيَةُ على طَاوِلاتِ المَقاهِي.. !

إنّهَا مُصَادَفَةُ العناوِينِ التي لَمْ تُعلِن عَنِ انفِتاحِ الضَوءِ..

فُتِحَ بَابُ المَقهَى على وَجهٍ مُبتَسِمٍ لِلمَطَرِ..

ـ صَباحُ الخَيرِ عَزِيزَتي إيفا..

إِنَّهَا إيفا نادِلَةُ المَقهَى..

شَهِيَةُ الخَدَّينِ إيفا ، تَحُضُ الجِياعَ على قَضمِ كُلِ شَيءٍ فِيها ، العَينَانِ و الخَدَانِ و اليَدَانِ و ثَوبَهَا الأسودَ القَصيرَ لِلنَشوَةِ ، و شَعرِهَا المُتناثِرِ على أعيُنِ المُحتَسِينَ لِلجَمَالِ..

ـ صَباحُ الخَيرِ دُكتُور .. عِمتَ صَباحَاً سَيدي!!

ـ عِمْتِ صَباحاً عَزِيزَتي .. هَلْ أَحضَرتُمْ صَحيفَةَ Die Presse؟

ـ نَعَم لَقَدْ أَحضَرهَا لَنَا هَذَا الصَباح السيد تُومَاس..

إِنَّهُ طَبِيبُ العَناوينِ السَاخِنَةِ ، و الكَلِمَاتِ المُتَقاطِعَةِ ، و الأوراقِ الضَبَابِيَةِ ، اِجلس سَيدِي على كُرسيِّ وحدَتِكَ ..

إيفا..

بِينمَا تَتَنَقلُ نَادِلَةُ المَقهَى بِينَ طَاوِلاتِ المَقهَى ، رَاحتْ تُدَقِقُ عَينَا طَبِيبِ النُفوسِ في صَاحِبَةِ السَاقِينِ اللمِاعَةِ ، و كَعبِهَا الشَاهِقِ ، و عَزفِ الخَطواتِ على إيقاعاتِ البَلاطِ ،

إِنَّهُ الحَاذِقُ في مَا تَشتَهِيهِ عَيناهُ ، فَكمْ و كَمْ حَاوَلَ أن يَلتَهِمَ العَرَقَ المُتَسَرِبَ على عُنقِ إيفا ، إِنَّهَا كَعكَةُ المَقَاهِي و هُوَ سِكِينُهَا و شَوكَتُهَا ، يُرِيدُهَا ولِيمَةً و تُرِيدُهُ زَبوناً ، لا تَعنِيهَا النَظراتُ التي يَتقَاطَرُ مِنَها لُعَابُ الأعينِ الشَرِهَةِ ، لا تَعنِيهَا ثَرثَرَةُ الشِفاهِ المُتَعطِشَةِ لقُبلَةٍ أو رُبمَا لمَسَةٍ أو هَمسَةٍ..

إِنَّهَا أنثى البُخَارِ المُتأجِجِ مِن أكوابِ المَقاهِي الكلاسِيكِيَةِ ، إِنَّهَا سَيدَةُ النَظَراتِ الفَتَاكة التِي رَاحَ ضَحيتُهَا ضِيقُ المَكَانِ بِالزَبائِنِ مِنَ الرِجَالِ..

فُنجَانٌ مِنَ القَهوةِ بِالحَليبِ ، و يَتغَشاهُ سَانتِيمِتراتٍ مِنَ الرَغوَةِ ، و قِطعَةُ كَعكٍ محشوةٌ بِالجُبنِ البَلدِي ، و مُربى العِنبِ بِالقِشدَةِ الرِيفِيَةِ ، مَعَ صَحِيفَتِهِ المُفَضلَةِ..

وُضِعَت هَذهِ الوَلِيمَةُ الصَبَاحِيَةُ على طَاوِلةِ الطَبِيبِ..

ـ شُكراً عَزِيزَتِي إيفا..

ابتَسَمت صَاحبَةُ الأسنَانِ البَراقَةِ ، كَعَروسٍ رُوسيَةٍ قَد زُفت إلى خِدرِهَا الأخِيرِ:

ـ هَذَا وَاجِبِي دُكتُور .. بِكُلِ سُرورٍ..

إنَ البِريستِيجَ بينَ أصحَابِ الطَبقاتِ الغَربِيَةِ الكَاذِبَةِ ، صَنَعَت حَواجِزَ نَفسيَةً بينَ أبنَاءِ الثَلاثِ طَبقاتٍ التي تَجمعُهم فِيمَا بَينَهم الإنسانيَةُ و تُفَرِقُهم المنَاصِبُ و المَادَةُ..

أَحبَ أن يَدعُوهَا ذَاتَ لَيلَةٍ إلى احتِساءِ نَبِيذِ العِنَبِ في أحدِ البَارَاتِ البَاهِظَةِ في تَرَفِهَا ذُو النِزَاعِ المُنَافِقِ..

و لَكِنَ الفَوارِقَ الشَاسِعَةَ بينَ مِهنَتِهِ و مِهنَتِهَا ، و بينَ حُضورِهِ اللافِتِ في المُجتَمَعِ و بينَ حُضورِهَا الشَهِي بينَ طَاوِلاتِ المَقاهِي المُتوسِطَةِ في تَارِيخِهَا ، قَد يَجلِبُ لَهُ الشُبهَةَ و يَضَعهُ تَحتَ مِجهَرِ حُثالَةِ المُجتمَعَاتِ التِي تَتَنَافَسُ في أنَاقَةِ أبنِيتِهَا و سيّاراتِهَا و تَناولِ المَشروباتِ ذَاتِ الثَمَنِ المُتهِورِ في حَوانِيتِهَا..

إنّهَا أُنثى التَحايُلِ على سَرابِ الذُكُورِ..

و هَوَ رَجُلُ الفَرَاسَةِ ، سَيدُ النَباهَةِ ، نَجمَةُ الحَظِّ التَعِيسِ..

لا شَيءَ يَجمعهُما سِوى النَظرَاتِ المُختَلَسَةِ في ضِيافَةِ كُلِ صَباحٍ..

الحُبُ المُشتهَى..

الحُبُ المُعَلَبُ..

الحُبُ المُبستَرُ..

الحُبُ المُنتَظَرُ..

أحلامٌ مُتَعجِلَةٌ قَبلَ مَواعِيدِ الجَدائِلِ المُنسَدِلَةِ على كَتِفِ الحَقِيقَةِ ، أعيُنٌ تَتَجسَسُ على هَفواتِ الحُبِ ، و أحلامٌ مُنفَلِتَةٌ لِلنَشِيدِ ، و تَرقُبٌ أبعَدَتْهُ المَسافَاتُ و قَرّبَتهُ سَحَابَةٌ تُشبِهُ الهَاوِيَةَ..

اِنْحَنَت أُنثى الخَيالِ..

و تَرَكَت اِبتِسَامَتَها لنَهشِ قَلبِهِ ،

ابتِسامَةٌ كَمَخالبِ الأُقحوانِ ، تَخدِشُ رُخامَ الرُجولَةِ في حَالِ تَخَطِيكَ لِنَبضِهَا ، إنّهَا الشِتَاءُ و أعَاصيرُ الشَهواتِ و زَوابِعُ الرَغَباتِ و فَيضَانُ الدِفءِ..

و لَو أنَ العُيونَ يُقرَأُ مَا فِيها..

لفُضِحَ العُشَاقُ ، و لانكَشَفَ مَا يُبحِرُ في مُحيطاتِ جَوفِهِم ، و لَكِنَهُ السِترُ الذِي وَهبَهُ الرَبُّ لِبَني الحُبِ و أهَلِ الهَوى..

و لكَأنَهُ يَراهَا غَجرِيَةً .. تَقرَأُ كَفَ مَن فَقَدَ قَلبَهُ..

اقرَأينِي يا أُنثَى المُعجزاتِ..

أَشعِلي بَخورَ الكونِ تَحتَ خِيامِ وحدَتِي..

و أنثُري أحَجارَ مَصَائِبِي على رُقعَةِ الحَظِ و الوَهَنِ..

هَل أمُدُ يَدي سَيدَتي أمَامَ فَضَاءِ هَذهِ اللُغَةِ و هوَاجِسِ المُستَحيلِ ؟

هَل وَجَدتِ كَلأ رَحيلي في صَحراءِ المُعلَقاتِ الفَوضَوِيَةِ ؟

هَل رَأيتِ حَثِيثَ المَسَافاتِ النَائِهَاتِ قَبلَ الضَياعِ ؟

اقرَأي صَدىَ الانكِسَارِاتِ على جُدرانِ شَراييِنِي ، على حَائِطِ الزَمَانِ الذِي لَنْ و لَنْ يَعودَ..

هَل وَجدتِ صُورةَ ذَاكَ الشَابِ في مَتَاهَاتِ المَاضِي ! ، هَل رَأيتِ بَقَايا جُنَاةٍ يَحصِدونَ أعمارَهَمْ خَلفَ مَنجَلِ الحَياةِ ! ، هَل لَمحتِ لُصوصَاً يَعصِرونَ أحلامَهمْ أمَامَ أوهَامِ الفَناِء..

إِنَّهُ أنَا يا إيفا..

خَمسُونَ خَرِيفاً .. و أنَا أعيشُ فَصلَ التَساقُطِ..

كُلُ شَيءٍ يَتَساقَطُ يا سَيدَةَ المَقاهِي المُرفَهَةِ بِالأكوابِ الخَزَفِيَةِ ،

أنا..

العُمرُ..

سَوادُ الشَعرِ..

شَراييِنُ العَاطِفَةِ..

بَريقُ الأحلامِ الخَافِتِ..

مُشَاهَدَةُ الأشياءِ بِبُؤبُؤِ الهُبوطِ..

و كُلُ شَيءٍ يتَقدمُ يا أُنثى الكَعكاتِ المُغطَاةِ بِدِهنِ التوتِ الجَبليِّ..

أنَا..

العُمرُ..

بَياضُ الشَيبِ..

أشلاءُ الزَحفِ لِلزَمَانِ..

حُفرَةُ الدِيدانِ الأُنثَويَةِ لِلإلتِهَامِ..

مُلامَسَةُ الفَضَاءِ بِأصابعِ الرُجَوعِ الخَافِتِ..

بِذَوقِ الذِي نَفضَ غُبارَ الشَهوَةِ ، حَشَى طَبِيبُنَا غُليونَهُ بِتِبغِ ثَوبِهَا القَصيرِ، و أشعَلَ عُودَ ثِقابِهِ كَمَا أشعَلَت صَاحِبَةُ السَاقِ المُغطَسَةِ بِعَسلِ الغُيومِ فُسَحَةَ الَمَـكانِ ، و رَاحَ يَسحبُ دُخَانَ آلَتِهِ بِشهِيقِهَا و زَفِيرِهَا..

إنَّهَا أبجَدِيَةُ المَجدِ بِغُبارِهِ المُتَناقِصِ..

كَمْ هُوَ مُذهِلٌ أَنْ يَـكونَ لَـدَيكَ كُلُ مُقَومَاتِ الحَياةِ ، و أنتَ خَالِي مِن ثانِي أُكسِيدِ الحُبِ ، إِنَّهُ وَحَدَهُ الحُبُ مَن يَجعلُ لِهَذِهِ الحَياةِ إِكسِيرَهَا الخَاص ، بِمَذَاقَاتِهَا المُتَعدِدَةِ الكَمَالِياتِ ، لا تُغنِيكَ أموَالُـكَ و لا أُوهَامُكَ و لا أحَلامُكَ مِن لَعنَةِ الوِحدَةِ ، إَنْ لَمْ يَـكُن قَلبُكَ مُعلقٌ على مِشجَبِ الحُبِ و شَرابِينُكَ مُلتَصِقَةٌ على مُصَادَفَةِ العِشقِ ، سَتشعُرُ بِأَنكَ أنتَ الحَشَرةُ الوَحِيدَةُ التي تُحلِقُ و تَهبِطُ تَحتَ قَذَارَةِ هَذَا الكُونِ..

طِر و حَلّق سَيدِي وَحِيداً بينَ أكنافِ الأيامِ كَنحلَةٍ مَنبُوذَةٍ ، و تَعلَمْ مِنَ الرَاحِلِينَ كَيفَ تَموتُ الفَراشَاتُ قَهراً بِوَحدَتِهَا..

يا طَبِيبَ المُصَادَفاتِ..

تَصَفَح صَحيفَتكَ ، دَقق في أشَباحِ العَنَاوِينِ ، تَجسَسَ على أعمِدَةِ الخُرافَاتِ الحِرفِيَةِ ، جِدْ

السَيرَ لاهِثَاً خَلفَ سِحرِ الأبراجِ ، أنتَ بِفنجَانِكَ و صَحيفَتِكَ و غُليونِكَ المَحشوِ بِبؤسِ ما تَبقَى مِن رَحِيلِكَ..

لَمْلَمَ طَبيبُنَا أشيائَهُ مِن بَعدِ تَناولِ الكَعكَةِ مَعَ فِنجَانِ قَهوَتِهِ..

و ارتدَى مِعطَفَهُ ، وَودَعَ إيفا بِقُبلَةٍ على خَدَّيهَا ، تَركَ للمَقهَى أسطورَةَ المُستَحِيلِ ، و فاتورَةَ حِسابِهِ التي قَد أضافَ إليهَا بخَشيشاً لسَيدَةَ الحبُ الخَافِتِ .. أَحبَ أن يَضَعَ قَلبَهُ و لَكِنَ القُلوبَ لا تُوضَعُ إلا في مكَانِها و حَرَكَتِهَا الثُنَائِيَةِ ..

يُطَوقُ مِعصَمَهُ سَاعَةٌ لَيسَ لهَا أَيَةُ قَواسِمَ مُشتَرَكَةٍ بالوَقتِ..

الوَقتُ هَنَا لَيسَ لَهُ عَقَارِبُ سَامَةً..

إِنَما تَسِيرُ الثواني على دَربِ الشِتَاءِ ، و تَتَقَمَصُ الدقائِقُ دَورَ الضَحِيَةِ الذَبِيحَةِ أَمَامَ صَفعَاتِ البَردِ، نَظَرَ الطَبِيبُ إلى سَاعتِهِ إِنَّهَا السَاعَةُ الثَامِنَةُ إِلا رُبع..

تَحتَ المَطَرِ جَرى بِكُلِ دِفئِهِ..

جَرى المَطرُ مُنتَعِلاً أَزِيزَ المَاءِ المُتَراشِقِ على الآلَةِ الوَحِيدَةِ التي عَزَفَتْ سِمفونِيَةِ الحُبِ و السَلامِ ، العَاصِمَةُ التِي يَنضُجُ اللَحَنُ فِي أفرانِهَا على وَقودِ الفُصولِ الشتائِيَةِ..

إِنَّهَا فِيينا..

أيقونَةٌ فَادِحَةٌ بِالغِنَاءِ..

عَاصِمَةٌ لَمْ تَأتِ مُصَادَفَةً..

إِنَّهَا الجَاذِبِيَةُ الوَحِيدَةُ لِتحدِيدِ لَحنِ العَواصِمِ التي لَمْ تَعرِفِ الغِنَاءَ يوَماً ، غَنِّي يا عَاصِمَةَ الشِتَاءِ بِبَردِكِ و شَوقِكِ لِحُفَاةِ الذَاكِرَةِ ، لعُراةِ السِنِينِ البَالِيَةِ ، لِمُمتَطِينَ جِيادِ النَغَمِ في لَيلَةِ النَهَمِ..

وَصلَ طَبِيبُنَا إلى سيّارتِهِ مُبتلَ الخَيباتِ ، قَد أرهَقَهُ الجَرِيُ بِأثقَالِ الرَفاهِيَةِ ، يا سَيدِي إِنَّها رَفَاهِيَةُ مَا تَقدَمَ مِنَ العُمرِ الضَائِعِ ، مَسَحَ نَظّارَتَهُ الطِبِيَةَ بِمندِيلِهِ الحَرِيرِي ، و جَفَفَ رَأسَهُ ، و وَضَعَ مِفتَاحَ سِيارَتِهِ بِمكَانِهِ الصَحِيحِ في الوَقتِ الخَطأ، كُلُ شَيءٍ يَنتَظِرهُ في عِيادَتِهِ..

كُرسِيَهُ الخَشَبِيُ المُغطَى بِجلدِهِ الفَارِهِ و المَحفورِ بِأيادي صُوفِيةٍ..

طَاوِلَتَهُ الزُجَاجِيَةُ التِي تُمسِكُهَا أطرافُ خَشَبِيَةٌ..

مَكتَبَتُهُ الطِبِيَةُ مِن مَراجِعٍ تَدورُ في جَوفِهَا أحَادِيثٌ صَامِتَةٌ ، تَجولُ مَعارِكُهَا في صَدى

النَفسِ ، لَعلَهَا تُخمِدُ تِلكَ الفِتَنَ ، لَعلَها تُطفِئُ تِلكَ النِيرانِ ، لَعلَهُ يذوبُ الوَجَعُ بِينَ الصَواعِقِ الجَافَةِ..

كُلُ شَيءٍ يَنتَظِرُهُ..

نَوافِــذُ غُرفَةِ التَحقِيقِ و التَدقِيقِ في أُمورِ المُراجِعينَ ، و السَتائِرِ الحَرِيرِيَةِ المَعقودَةِ بِحِبالِ الذَهبِ المَغشوشِ ، و زَخارِفِ الجُدرانِ المُتَشابِكَةِ كَتطاحُنِ الخَيالِ..

و السِكرتِيرَةُ المُهَذّبَةِ:

مُونِيكَا..

أنثَى عَذبَةُ الشَجَنِ..

في رَمَادِ عَينِيهَا مَداخِلُ بَساَطَةٍ ، و لَكِنَ نَبوءةَ العِينِينِ لَهَا حَياةُ الرَبِيعِ بِاخضِرارِها المُكَدَسِ بِالخَشيَةِ ، و سارت عَلى الشِفاهِ رائِحَةُ آخِرِ الحُبِ ، هَوَ الحُبُ الذِي لَمْ يَتَمكَن مِنها ، و لَكِن

تَمـَكَنَت مِن عِلاقاتٍ عابِرَةٍ على سَرِيرِ الانحِلالِ بالأجسادِ المُشتَهاةِ..

إنَّها آنِسَةُ الجَمَالِ و سِيدَةُ الغَصَةِ المتَمَرِدَةِ في كُلِ مَساءٍ على شَراشِفِ الرَغبَةِ ، إنَّهَا قُوةُ التَوقِ إلى نَزَعَةِ الأُنوثَةِ بَعدَ جُوعٍ مَرِيرٍ لرِائِحَةِ رَجُلٍ ، هِيَ التِي لَمْ تَصنَع مِنَ الحُبِ حَقِيقَةً لِلإحبَاطَاتِ الوَفِيرَةِ و المُحَاوَلاتِ الكَثِيرَةِ..

إنَّهَا المُعَفَرَةُ بِعَابِريْ شَفَتيهَا الوَردِيتَينِ..

لَقد مَرَّ قَلبُهَا في مُدُنِ الرِجَالِ الذِينَ يُنكِرونَ الحُبَ فِي لَيالِي النُهوضِ بِشَهواتِهم الذُكورِيَةِ ، و عِندَ مُنعَطَفِ النِهايَةِ ، بَل نِهَاياتِ النَشوَةِ و مَوتِ الشَهوَةِ ، الكُلُ يَرحَلُ بِأمعائِهِ المُنتَفِخَةِ بالفَوزِ ، الكُلُ يَرحَلُ و يَدعُهَا كَذَبائِحِ الإفرَنجِ مُلطَخَةُ الجنَاحينِ بِذنبٍ لَيسَ ذَنبَهَا ، بل لشَهوةٍ لا تَعرِفُ مَا مَدى قَوَتِها..

في المَرحَلَةِ النِهائِيَة مِن دِراسَتِهَا التَوجِيهِيَةِ عَلِقَت بِسِنارَةِ صَيادٍ تَكبُرهُ جمَالاً و يَكبُرهَا تَفوقَاً ، كَانَ مُحَاطَاً بِالمُعجباتِ لنَجابَتِهِ و فِطنَتِهِ ، فَما كَانَ إلا و تَعثَّرت عَينُهُ اليُسرى بَغمَزَةٍ عَابِرَةٍ بِلا مُقَدِمَاتٍ ، فَسَقطَ قَلبُهَا مُغمَى عَلِيهِ ، صَارَت تُحدِثُ نَفسَهَا:

هَل هَذا هُوَ الحُبُ يا رَبّاهُ.. !

هِيَ التِي لَمْ تَعرف لِلعِشقِ قِبلَةً..

هِيَ التِي قَرأت كَفَ العِشقِ في الكُتُبِ و الرِواياتِ الرُومنسِيَةِ ، و لَمْ تَعِشهُ أو تَقتَاتَ مِنهُ يَومَاً ، سَارت مُحَطَمَةً على جَلِيدِ الحَركَاتِ المَشبوهَةِ ، حَتى رَآهَا تَارَةً أُخرى أمَامَ بَوابَةِ المَدرَسَةِ تَنتَظِرُ قُدُومَ أُمِهَا ، وَقفَ بِجَانِبِهَا يُغَازِلُ ظِلَهَا ، إنَّهُ ظِلُها و شَمسُهَا ، يُحَرِكُ مَسارَ بِدايَةِ

صَيفِهَا ، كَأَنَهُ حَرارَةُ الشَمسِ ، و كَأنهَا شَجرةُ مِشمِشٍ تَتَقلبُ على لسَعاتِ حَريقِهِ ، قَالَ لَها:

ـ هَل تَسمَحي لي بِمُرافَقتِكِ.. !

ـ سَقَطَ قَلبُهَا ، و خَفَقَ حَتى وَصلت رَائِحَةُ عِطرِهِ إلى مَنَافِسِهَا ، قَالتْ:

ـ بِكُلِ سُرورٍ .. و لَكِن أنَا أنتَظِرُ أمُي..

قَاطَعَ حَدِيثَهَا ، لِيضَعَ شِيفرَتَهُ السِحريَةَ ، لِيُلقي بِطُعمِهِ الشَهيّ قَائِلاً:

ـ أَنَا أقصِدُ في عُطَلَةِ نِهَايَةِ الأُسبوعِ.. !!

خَجِلَ رُذَاذُ الوَردِ في خَدَّيهَا ، و ذَابَ عَسلُ السَهلِ في وَجدَيهَا ، إِنَّهَا فَراشَةُ العَفافِ التِي لَمْ يَلمس شَفَتاها الحَرِيرُ ، فَكَيفَ بِرجُلٍ.. !!

بَعدَ عُسرٍ بِالنُطقِ ، قَالتْ:

ـ حَسَناً سَأُفَكِرُ بِالأمرِ جَيدَاً..

وَضَعَ في كَفِهَا وَرقَةً كُتِبَ عَلِيهَا رَقَمُ هَاتِفِهِ الشَخصِي ، و دَبَّ في خَجَلِها دَهَائَهُ قَائِلاً لَهَا :

ـ فَكِري جَيدًا .. أنَا أنتَظِرُ جَوابَـــكِ هَذِهِ اللِيلَةَ أرجُو أن تَتَصِلي و تُعلِمِينِي بِرَغبَتِكِ في مُرافَقَتِي في عُطلَةِ نِهَايَةِ الأُسبوعِ .. باااي..

أدارَ ظَهرَهُ لِدَهشَتِهَا و لِصَمْتِهَا ، و تَرَكَهَا لِلسُـكونِ المَكنونِ في القَلبِ ، إنَّهُ الثَعلَبُ المَاكِرُ الذِي يَرعَى فَرِيسَتَهُ قَبلَ الانقِضَاضِ على نَهشِ لَحمِهَا ، إنَّهَا هِيَ الفَراشَةُ البَيضاءُ التِي لا تَعرِفُ بِمَا يَدورُ في أقفَاصِ الذُكُورِ..

تَركَهَا لِلظِلِ المُخِيفِ، تَركَ صَمتَها لُحُرقَةِ الشَمسِ و تَقلُبَاتِهَا العَاطِفِيَةِ ، لَمْ يُعطِها فُرصَةً لشَهقَةِ الرُوحِ و زَفِيرِهَا ، وَصَلَت أُمُها و أَوصَلتَها إلى المَنزِلِ ، و أسدَلَ الليلُ سِتارَ حُبِهِ لِلقَمَرِ..

أيُهَا القَمَرُ سَاعِدني فَأنا في حِيرَةٍ مِن أمري ، أُوافِقُ على الدَعوَةِ أمْ أرفُضُهَا !!

أدَارَ القَمرُ وَجهَهُ خَلفَ سَحابَةٍ ، و استَغَلت وجودَ الكَمِ الهَائِلِ مِنَ النُجومِ ، لِتَتَصِلَ بِهِ..

عَزَفَ الهَاتِفُ مُوسِيقَى نَبضِهَا ، و زَادَ الخَفَقانُ في الدَورانِ حَتى خَرَجَ عَن مَسارِهِ..

ـ آلو أنا مُونِيكَا..

كَادَت تَقُولُ لَهُ أنَا حَبيبَتُكَ ، و هَواكَ ، و عِشقُكَ الأولُ و الأخَيرُ..

ـ كُنتُ أتَوقَعُ إتِصالَكِ عَزِيزَتِي مُونِيكَا..

ـ حَسنًا يَسُرُنِي مُرافَقَتُكَ يُومَ السَبتِ..

ـ سَنذهَبُ إلى لِينز يا عَزِيزَتِي..

ـ بِكُلِ سُرورٍ .. و الآن أُرِيُد النَومَ تُصبحُ على خَيرٍ صَدِيقي..

أُغلِقَ الهَاتفُ .. و انغلقَت في أحلامِهَا و أوهَامِهَا..

لَقد كَانت مُونِيكَا..

في ذَاكَ الزَمَانِ..

كَأولِ تثَاؤبِ الرَبِيعِ..

تَرقُصُ كاهتِزازِ شَلّالِ شَعرِهَا الذَهَبِي..

تَنَامُ بِثِيابِهَا الحَرِيرِيَةِ كَمَن يُلَملِمُ جَفنَيهِ أمَامَ قُوةِ النُورِ..

إنَّها أولُ سَحَابَةِ عِشقٍ تَتَعثُرُ بِهِ..

هَل هُوَ حُبُ أمْ إضاعَةٌ لِلوَقتِ أمْ بِدَايَةٌ لِلموتِ !؟

نَامِي يا مَلِكَةَ البِدَاياتِ الخَافِتَةِ .. نامِي آنِسَتي..

مُونِيكَا..

كَفَراشَةً تَغفو على سَحابَةِ الحُبِ المُرَتَبِ..

شَهيَةُ النَهدَينِ في بِدَاياتِ فُصُولِ الشَهَوَةِ الرُباعيَةِ..

مُحمَرَةُ الشَفتِينِ في غَفوةِ الرُوحِ الأسِيرَةِ دَاخِلَ هَياكِلِ الجَسَدِ..

طَوَت حُلمَ الحُبِ على كَتِفِ وسَائِدِ الشَوقِ ، و تُغَني لَهُ و تَهُزُ طَهَارَتَهُ و تَغفو بِجَانِبِهِ..

إنَّهَا ذَرَةُ الضَوءِ الخَافِتِ في زَمانِ الخِيانَاتِ..

مِن طُهرِ تِلكَ الفُسحَةِ الجَذَابَةِ في دَاخِلِهَا ، تَكَادُ تَستَلقِي في ظِلِ رُوحِهَا ، و تَغفو بِمُحَاذاةِ اوبِرا النَبضِ..

اعزِفِي آنِسَتي لَحنَ الهُدوءِ في غَفوَةِ العِشقِ..

اسمِعينا تَرانِيمَ السَــكِينَةِ يا نَاصِعَةَ الجَوارِحِ..

قِدِيسَةُ الحُبِ يا حَمَامَةَ الصَوامِعِ..

استَيقِظي يا عَذراءَ النَقاءِ! ..

استَيقِظي يا كَلِمَةَ الآلِهَةِ الخَالِدَةِ! ..

تَسَللت خُيوطُ الدُراقِ الصَيفي ، مُتَخَفِيَةً بِالنَدى ، مُتَلَصِصَةٍ بِالسُحبِ المُتَطفِلَةِ التي اجتاحَت نَقاءَ السَمَاءِ ، إنَّها مَنسُوجَةُ الخَيالِ المُتكَابِرِ على وَتَرِ الكَمنجَاتِ النَائِمَةِ ، و رَاحَت سَكِينَةُ الصَباحِ تُدَغدِغُ بَشَرَتَهَا..

يا رَبَّاهُ..

هَل هَذِهِ أُنثى البَياضِ..

آنِسَةُ العَسلِ الرِيفي الرائِبِ..

بينَها و بينَ النَغَمِ .. شَرطَةُ حُبٍ و خُطوَةُ شَوقٍ..

تَمطّت أُنثَى النَرجِسِ..

و رَفَعَت خِصَلَ شَعرِهَا عن وَجهِهَا..

رُفِعَ تَاجُ الجَمَالِ كَاشِفَاً سِمَةَ السِحرِ الخَلّابِ..

و حَلّقَت ذِراعُهَا مُتَثَائِبَةً حَتى ظَهَرَ صَفاءُ إِبْطيها..

إِنَّهُ صَبَاحُ السَبتِ ، و قِيامَةُ المَسيحِ إلى إِكلِيلِ الزَعتَرِ..

أخرَجَت ساقَيهَا مِن صَدفَةِ فِراشِهَا ، حَتى ظَهَرَ انبِلاجُ رُكبَتِها ، و كَأَنَها دَالِيَةُ عِنَبٍ ، تَدَلَت على أسوارِ الجَنَةِ ، يا جَنَةَ الهَوى :

أنقِـذِيني يا أُنثَى الصَباحِ..

يا مِحورَ الطوَافِ في مَجّراتِ الشَهيقِ..

يا فُتَاتَ الخُبزِ أشبِعي عَصَافِيرَ نَهَمِي..

غَسَلَت فِتنَتَهَا بِمَاءِ الكَمَالِ ، و بَلّلَت شَلّالَ شَعرِهَا الصَيفِي بِمِاءِ الأُقحُوانِ..

تَبَرجَي يا رَحِيقَ العِطرِ..

و ارتَدِي تَعرِيّ القَمحِ الذَهَبِ..

على مَهَلٍ يا آنِسَةَ العِطرِ ، لا تُلَوِثِي عُنُقَ الحَياةِ ، بِسُمومِ الكولونِيا النِسَائيَةِ، بل يَكفِي مَا سَالَ مِن رَشَحِ المَسامَاتِ عِطراً لمَسعَى مَوعِدٍ رُبمَا هُوَ على قَدْرِ النُضوجِ..

لَبِسَت مُونِيكَا ثَوبَها المُخَضَبَ بِصَمتِ زُهورِ النَرجِسِ المُتنَاثِرَةِ بِسُكونِهَا ، ثوبٌ مَا فوقَ رُكبَةِ النَشوَةِ بِأمتارٍ ، و مَا تَحتَ وِركِ الشَهوَةِ بِأمِيالٍ ، مُنكَشِفُ الظَهرِ ، مُنحَسِرُ الأضلاعِ ، يُمسِكُهُ خَيّطانِ شَفَافَانِ ، يُرافِقُهُ شَقٌ خَلفيٌ لّمَاعٌ يَخرُ القَلبُ لِرؤياهُ..

شَيءٌ مِنَ الحُمرَةِ الحَادَةِ في نَزعَتِهَا تَلتَهِمُ شَفتَاها لِتَخرُجَ مِن مَوارِبِ مَنزِلِها مَحشُوَةٌ بِالحُبِ ، مُغَطَسَةٌ بِكريم الشَهوَةِ..

كُلُ العُيونِ التي لَمْ تَعرِف مِنَ الحُبِ سِوى شَهوَتِهِ، رَاحَت تَقعُ مُرتَطِمَةً لِجَمَالِ صَاحِبَةِ

الجَمَالِ ، كَأنَهُ البَدَرُ يَجُرُ نُورَهُ حَابِياً على فِتنَتِهِ ، اِمشي آنِسَتي و أطرُقِي بِكعَبِكِ عَاصِمَةَ الكَمنجَاتِ ، كُلُ الأرصِفَةِ تَعزِفُ لَكِ ، كُلُ الشَوارِعِ تُغَنِي لِطَلتِكِ ، كُلُ الإِشَارَاتِ المُرورِيَةِ تَتَفجَرُ لِبهائِكِ..

هَا هِيَ العَاصِمَةُ العَتِيقَةُ تَعزِفُ لِإشعَاعِكِ مَقطوعَاتِ الزَلازِلِ ، تَرتَجفُ طَرَباً لِإوركِسترا عِطرِكِ ، تَرتَّجُ لَحنَاً لأصَابِعِكِ ، مَهلاً يا أُنثَى السَرابِ..

اِلتَقَتهُ مِن بَعدِ أن رَكِبَت المِترو في مَحَطَةِ الفِست بانهُوف..

لَاحَت لَهُ مِن بينِ الضَبابِ البَعِيدِ..

شَاهَدَ وهَجَ نُورِهَا من بينِ كُثبانِ الرؤوسِ..

كَعَاصِفَةٍ أصَابَ البَدِيعُ فِيهَا نُوراً مِنَ السِحرِ..

مَا إِن وَصَلت إليهِ حَتى ذَابَ لُبَهُ ، و تَمسمَرَت رُوحُهُ في حَلقِ دَهشَتِهِ ، إِنَّهَا اللوحَةُ الفَاتِنَةُ التِي

خَرَّ لَهَا كُلُّهُ ، تَجمَدَتِ النَظَراتُ على مِشجَبِ زَوابِعِ الدَهشَةِ ، و لا مَفرَ مِن هَذِهِ الكَارِثَةِ التي اجتَاحتْهُ بِكمَالِهَا و عُنفوانِهَا ، مَدّت كَفّهَا لمُصَافَحَةِ بدَابَةِ عُطلَتِهِ ، فمَدَ لَهَا لُعَابَهُ مُتشَرِدِقَاً بجَاذِبِيةِ إشعاعَاتِهَا ، نَطَقَ الجَمَالُ مُفتَتِحَاً حَدِيثَهُ قَائِلَةً :

ـ صَباحُ الخَيرِ صَدِيقِي..

لا زَالت خَمرَةُ الدَهشَةِ تَلطُمُهُ ذَهابَاً و إياباً .. حَتى وَقعَ مُنتَشِياً بِهَا ، نَطَقَ و لُعَابُهُ قَد أغرَقَ فَمَهُ قَائِلاً:

ـ صَباحُ الخَير ِعَزِيزَتِي..

يا لَيتَهُ قَالَ لَهَا يا كُلَ إناثِ الكَونِ و يا ساحِرةَ الفِتنِ الشَاهِقَةِ ، و لَكِنَهُ أمسَكَ دِفئَ كَفِّيهَا و رَكِبا مَعاً القِطارَ المُتجِهَ إلى مَدِينَةِ : لِينز..

دَارَت كُؤوسُ التَلَصُصِ إلى المَفاتِنِ الخَلاّبَةِ في وَضحِ الأعيُنِ المُسَافِرَةِ ، و على سِكَكِ العِشقِ سَارَت مَراكِبُ النَظَراتِ تَتَجسَسُ على مَلامِحِ قَمَرَينِ لَمْ يَـكتَمل حُبُهُمَا..

وَصلَ القِطارُ بَعد سَاعَةٍ و نِصف مِن انقِباضِ الذُهُولِ المُباغِتِ ، و حَطَّ القَلبُ بِرِحَالِهِ في مَدِينَةِ العُشَاقِ ، و سَارَا مَعَاً مُمُسِكَينِ كَفّيهِما إلى أقرَبِ بَارٍ ذُو الدَفعِ المُتَوَسِطِ..

ـ مَاذا تَشرَبِينَ آنِستِي!!

ـ البيرة مَع مُكَعَباتِ الثَلجِ..

ـ و أنا سَأطلُبُ الويسكِي مع شَرائِحِ الليمونِ..

ابتَسمَ القَدرُ للثعلبِ الماكِرِ ، بِينمَا كَانت أرنَبَةُ الحُبِ في سُباتِ العِشقِ الذِي لا تَعرِفُهُ سِوى في الكُتبِ ، رَاحَ يعصِرُ لَهَا الكَأس تِلو الآخر حَتى ذَبُلَت ، و مَاجَ الكُونُ بِرُمَتِهِ أمَامَ عَينيهَا ، حَتى

تَمَايَلَتِ الخُطوطُ الوَاقِعِيَةُ مِن حَقِيقَتِها ، و امتَزَجَت خَلايا اللونِ في مَاهيَتِهَا..

ضَحِكَ الثَعلبُ قَبلَ غُرُوبِ الخَمرِ..

و سَحبَ ضَحيَتَهُ إلى فُندُقِ المَدِينَةِ..

يا أرنَبَةَ البَرارِي البَيضَاءِ .. يا زَنبَقَةَ النصَاعِ ..

يا عَذراءَ الندَى .. يا قِدِيسَةَ الشَمسِ الصَيفِيَةِ..

استَيقِظِي آنِسَتي..

إَنَّهَا سَكرَةُ الغَدرِ قَبلَ الخِيانَاتِ..

أدَخَلَها إلى الغُرفَةِ رقم 563 .. و أوصَدَ بَابَها ، و سَالَ لُعَابُ غَدرِهِ أمَامَ جُثمانِهَا الثَمِلِ ، أراحَ ذَبِيحَتَهُ أمَامَ مَذبَحِ شَهوَتِهِ ، و وَجّهَ نَحرَهَا أمامَ قِبلَةِ النَشوَةِ ، و جَرَّدَ جَمَالَها لِيَلتَهِمَ كَمالَهَا ، و رَاحَ يَلعَبُ مَعها حَربَ الكَرِ و الفَرِ..

فَكَانَت تَدفَعُهُ بِذِراعيهَا ، و هَوَ يَلطِمُ قِواهُ كالَموجِ لإناخَةِ ما تَبَّقَى مِن أنفاسِهَا..

حَاوَلَت مَعَهُ لُغَةَ المَنعِ .. و حَاولَ مَعها لُغَةَ الهُجومِ..

إِنَّهُ فَتى الجُوعِ لِلإِنقِضَاضِ على فَرائِسِهِ، إِنَّهَا فَراشَةُ الضَعفِ التي تَهرُبُ مِن شِباكِ العَناكِبِ..

اِستَسلَـمَت مُونِيكَا أَمَامَ ذِراعِيهِ ، و سَلَّ مِبرَدَ جُنُونِهِ و راحَ يَعزِفُ لِوَجَعِهَا غَدرَهُ .. فُجَت دِمائُهَا بِسَهمِ الخِيانَةِ ، و لَمْ تُوقِفُهُ الدِماءُ ، فَراحَ يَشدُ الوِثاقَ بِصُعودِهِ و نُزُولِهِ حَتى تَهشَمَ جِلدُهَا ، و بَرُدَت شَهوَتُهُ .. و سَقَطَ الثَعلبُ على صَدرِهَا كَما سَقَطَت رُوما بِيَدِ الغُزاةِ..

مِسكِينَةٌ أنتِ آنِسَتي..

هَل أقُولُ لَكِ مَدَام !؟

أم يَكفي أنْ أسدُلَ سِترَ الآلِهَةِ على ما حَدَثَ مَعكِ!!

المَجدُ للآلِهَةِ التِي خَلَقَت بِجَانِبِ الخِيانَاتِ ، سِترَاً يَتخّفى بِهِ بَنو البَشَر..

فَبعَدَ أن جَفّت دِمَاءُ الغَدرِ على سَرِيرِ فَضِ البَكَارَاتِ ، طَلَعَت شَمسُ يَومِ الأحَدِ تَتَلوى بِبَهاءٍ ، فَلَم يَستَيقِظِ الجَانِي لِأنَ الجُنَاةَ يَخشَونَ النَورَ ، و لَكِن استَيَقَظَت الضَحِيَةُ على أَجراسِ الكَنائِسِ ، هُم وَحدَهُم المَظلومُينَ بِينَهُم و بِينَ نِدَاءِ اللهِ مِيثَاقُ النَورِ و كَشفِ المَستورِ ، إنَّهُ نُورُ الله بِخيوطِ القَرابِينِ..

يا أجراسَ الصَوامِعِ الشَاهِقَةِ..

على كَتِفِ الصَلِيبِ اِقرَعي أجراسَ قِيامَةِ الدِمَاءِ الجَافَةِ على شَراشِفِ الغَدرِ و الخِيانَاتِ..

رَاحت الأجفَانُ تَتَألَمُ قَبلَ انبِلاجِهَا ، و اهتَزَتِ العُروقُ تَحتَ مَلامِسِ الجِلدِ ارتِجَافَاً ، إنَّهُ جَسدُ النَصَاعِ الأمْهَقِ ، المُلقَى على كُثبانِ السَرابِ ، لا زَالتْ تَتَألَمُ و تَتَلمَسُ بِكَفَيهَا مَا حَولَها مِن عَدَمِ إدرَاكٍ لِلُأمورِ ، هَا هِيَ النَظراتُ المُتَدَاخِلَةُ تَرى ضَبابَ الغُرفَةِ ، تَسعى لِتَتَحَسَس صَدى جَسَدِهَا ، تَرى ثَعلَبَهَا قَد مُرِغَ بِنومٍ عَميقٍ..

لاحَظَت أصبِغَةُ الدِمَاءِ بِينَ فَخذِيها .. تَلَقَت أولَ صَدمَةِ غَدرٍ ، أرَادَتْهُ عَاشِقاً جَواداً ، و فَارِساً مِقداداً..

فَكَانَ كِذبَةً, قَدْ سَقَطَ مِن عَينِهَا..

لَمْ تَضرِبْهُ ، لَمْ تَشتُمْهُ ، لَمْ تَقتُلْهُ..

ارتَدَت مَعَ الدُموعِ ثِيابَهَا ، و خَرجَت خَاوِيَةَ السُرورِ ، و تَركَتهُ لِفِعلَتِهِ نَائِمًا جَباناً خَائِناً على سَرِيرِ غَدرِهِ..

إِنَّهُ مَكرُ مَن لا يُؤتَمنُ غَدرُهُ..

لَو طَلبَ مِنهَا مَا يُرِيدُ ، لَقدَمَت لَهُ نَفسَهَا على طَبقٍ مِنَ الوَردِ ، لَكِنَّهُ راحَ يُدَغدِغُ أُنوثَتَهَا حَتى الثمَالَةِ ، سَحَبَهَا في لَيلَةٍ اختفى فِيهَا نُورُ الأمَانِ ، فَسلَ نَشوَتَهُ و أرخَى ضَحيَتَهُ و أخمَدَ شَهوَتَهُ و رَماهَا لِلظَلامِ و لِلأحلامِ..

إِنَّهُ فَتى الخَمرِ ، يَعرِفُ كَيفَ يَصطَادُ فَراشَاتِهِ ، بشِباكِ جُعَتِهِ و تَحتَ وَقعِ سَكْرَتِهِ..

سَارت مُبَلَلَةً بِالدُموعِ و الحُزنِ..

و رَكِبَتِ القِطارَ المُؤدي إلى العَاصِمَةِ فيينا..

و دَخَلَت بَيتَهَا طَاوِيَةً في قَلبِها كَمَدٍ, كَحَرِ هَذَا الصَيفِ..

اتصَلَ بِها مساءاً ، لَمْ تُجِبهُ ، عَاودَ مِراراً و تِكراراً ، أغلَقَت هَاتِفَها كُلياً ، شَاهدَها في الـمَدرَسَةِ فـي الـيَومِ الـتَالي ، حَـاولَ مُحادَثَتَها و الاعتِذَارِ لهَا..

إنَّهُ يَميلُ قَلبُهُ لِلعنِيدَاتِ ، و هِيَ تَكرَهُ الرَجُلَ الذِي يَجرِي في عُروقِهِ ثاني أُكسِيدِ الغَدرِ ، و بِينَ كَرٍ و فَرٍ و مُحَاولاتٍ عَدِيدَةٍ و جُهودٍ عَنِيدَةٍ ، رَاحَت تَتَعرفُ على شُبانِ المَدرَسَةِ و التَحدُثِ مَعَهُم كَي تَقتُلُهُ غَيظاً ، و لَـكِنَّهُ لمْ و لَنْ يستَسلِمَ ، إنَّها مَعرَكَةُ الثَعالِبِ الجَبَلِيةِ مَعَ الأرَانِبِ البَرِيةِ..

لَقَدْ صَادَقَت مُعظَمَ الشُبانِ و خَرَجَت مَعَهُم لتِقتُلَهُ ، و لَكِن قَتَلَت نفَسها بِسَبَبِ مُضاجَعَةِ الرِجَالِ على أسِرَةِ الشَهوَةِ..

إنَّهَا مُونِيكَا..

مِن بَعدِ مُرورِ السِنينِ التي لَمْ تُنْهي دِراسَتَها الجَامعِيَةَ ، أصبَحَت ضَحِيَةَ الشَهواتِ كَسِكرتيرَةٍ رَسمِيَةٍ لِطَبِيبٍ نَفْسي رُبَما طَبِيبُنا بِحَاجَةٍ إلى طَبِيبٍ يُعَالِجُهُ..

ـ صَباحُ الخَيرِ مُونِيكَا..

اِقْتَحَمَ الطَبِيبُ عِيادَتَهُ النَفسيَةَ بِأُبَهَةِ الشِتَاءِ و بَعثَرَةِ المَطرِ..

ـ صَباحُ الخَيرِ دُكتُور..

ـ نَعَمْ اليَومُ عِندَنا عِدةُ مَواعِيدٍ و ربُما سَيكونُ هَذا اليَومُ عَمَلاً شَاقاً..

خَلَعَ طَبِيبُ النُفوسِ مِعطَفَهُ قَائِلاً لَهَا:

ـ لا عَليكِ عَزِيزَتِي مُونِيكا ، أرجو أن تُعِدِي لِي كُوباً مِنَ الشَاي قَبلَ البِدءِ بِالعَمَلِ..

ابتَسَمَ وَجهُ مُونِيكَا لِهَذا النَشَاطِ الذِي أقبَلَ بِهِ طَبِيبُ النُفوسِ المُحطَمَةِ و قَالت :

ـ حَسَنا دُكتور .. دَقائِقُ و سَوفَ أجلِبُ لَكَ كُوبَ الشَاي..

مُونِيكَا..

إِنَّها الجَرِيحَةُ..

إِنَّها اللطِيفَةُ و مَرمى مِنَ التَعَبِ..

و الحَرَكَةُ الثُنائِيَةُ لتَرتِيبِ المَواعِيدِ و التَنسِيقِ بِينَ الدَاءِ و الدَواءِ ، و سَاعِدهُ الثَانِي في مَسِيرَتِهِ الجُنُونِيَةِ التِي يُعَالِجُ بِهَا مَرضَى النُفوسِ المُلطَخَةِ بِالخَيبَاتِ..

جَلَسَ الطَبِيبُ بَعدَ أَنْ ارتَدى بَياضَ السَائِلِينَ عَن أحوالِ المَهمُومِينَ ، مُقَابِلاً لِلصَمتِ مُتَرجِلاً لِاستِقَبالِ حَالاتِ الجُنونِ..

اِحتَسى شِتاءُ فيينا مَعَ طَبيبِنا كُوبَهُ السَاخِنَ على مُوسِيقى المَطَرِ ، و أَخبَرَ مُونِيكا أَنَّ تُدخِلَ المُراجِعَ الأولَ:

ـ صَباحُ الخَيرِ دُكتور..

ـ آهَا .. إنَّهَا إليزَابث..

سَيدَةُ الحِدَادِ الصَعبِ ، وَجهٌ مُمَرَغٌ بِالحُزنِ ، و جَسَدٌ مَكسوٌ بِالكَمَدِ ، لَقَد عَبرَت الأربَعينَ عاماً مِنَ الجَمَالِ ، و لَكِنَّ الأقدَارَ لَها ألاعِيبُها الخَاصَةُ ، فَقبلَ خَمسَةِ أعوامٍ فَقَدَت زَوجَها بِمرضِ السَرطَانِ ، و قَبلَ عَامٍ فَقَدَت اِبنَها الوَحيد في حَادثٍ مُؤلِمٍ ، و إلى هَذِهِ اللحَظَةِ و هِيَ تُسَدِدُ دِيونَ جنَازَةِ زَوجِهَا و اِبنِهَا عن طَريقِ الأقساطِ..

تَقولُ إليزَابث :

يا دُكتُور أشعُرُ بِأنَني خَاويَةٌ..

فَارِغَةٌ مِنَ الحَياةِ التي أتعَبتني في نِهايَتِهَا..

هَل تَشعُرُ بِي يا دُكتُور !؟..

تَنتَابُني حَالَّة مِنَ الإحبَاطِ و اليَأْسِ مِن هَذِهِ الحَياةِ ، لَقَدْ أصبَحتُ أتمنى الموتَ بَدَلاً عَن زَوجي و ابني..

اِنتَهَتِ الجَنَازَةُ و رَحَلَ المُعّزونَ ، قُلتُ في نَفسي بِأنَني سأخلُدُ لإرتَاح ، لَمْ يَبقَ شَيءٌ و انتَهَى كُلُ شَيءٍ في لَحظَةٍ واحِدَةٍ ، نَحنُ لا نَستَطيعُ فِعلَ شَيءٍ أمَامَ رَحمَةِ الرّبِ..

عُدتُ إلى المَنزِل لَعلِّي أخلُدُ إلى النومِ ، و لَكِنَّ جِراحَ مَن رَحلوا لا زالت تَتَألمُ في دَاخِلي ، لَمْ أستَطِعِ النومَ أوِ الأَكـلَ أبداً..

قُلتُ في نَفسي أيامٌ و سَوفَ يَنتهي الأَمرُ..

و لَكِن كَانَتِ الفَاجِعَةُ أكبَرُ مِن رَكلِ الأيامِ لِلحِدَادِ الذِي أعيشَهُ ، لَمْ أعُد كَالسَابقِ بِذَاكَ المَرَحِ المُتَجَدِدِ في دَاخِلي ، لَقَد خَمَدَ تَدَفُقُ إكسيرِالسَعادَةِ

إلى قَلبي ، لَقَد قَتَلَني الرُوتِينُ اليوميُ الخَالِي مِنْ عَائِلَتي..

جَلَسَ طَبِيبُ النُفوسِ على قَارِعَةِ الصَمتِ..
يَنتَظِرُ المُراجِعينَ .. صَوتٌ من مَوارِبِ البَابِ..
ـ صَباحُ الخَيرِ دُكتُور..
التَفتَ بِكُلِهِ ، جَالِسٌ على كُرسِيهِ المُستَدِيرِ..
ابتَسَمَ لِقدُومِهَا على حَسَبِ مَوعِدِهَا..
ـ آآه هَذِهِ أنتِ عَزيزَتي إليزَابث
ـ عِمتي صَبَاحاً .. افتَقَدتُكِ .. كَيفَ حَالُكِ !؟.
جَلَسَت إليزَابث على الكُرسِي المُقَابِلِ لِمَكتَبَةِ الطَبِيبِ ، شَاحِبَةً كَشَجَرَةٍ طَوتهَا الأيامُ عَطَشاً ، و لكَأنَهُ قَالَ لهَا أينَ أوصَلَكِ الحُزنُ ، و هَلْ كَانَ الحُزنُ لَطِيفاً مَعَكِ !!؟
تَنهَدَ القَلبُ مَصحُوبَاً بِشهقَةِ تَعَبٍ..
تَكَسَرَت مَلامِحُ الوَجهِ كَأمواجِ المُتوسِطِ..
هَل هَذا اللَّحنُ عَزفُ نَايٍ يا تُرى!

إِنَّهَا مُوشَحَةٌ يَتِيمَةٌ مُنمنَمَةٌ خَالِيَةٌ مِنَ الحَياةِ ، كَراهِبَةٍ خَلَت مَعَ الله في أحدِ الكُهُوفِ المَعزولَةِ عَن مُقومَاتِ الحَياةِ..

لَمْ تَرفَع عَينيها عَنِ الأرضِ .. رَدّت على سُؤالِهِ عَن حَالِها:

ـ صَدقِني يا دُكتُور إِنَني أمُوتُ بِصَمتٍ ، إِنَ الفَراغَ الذِي حَطَّ بِرِحَالِهِ بينَ أروِقَةِ قَلبي يَكَادُ يُحَطِمُني..

لَمْ أعُد أقوى على حَملِ هَذا الكَمِ الهَائِلِ مِنَ الكَمَدِ ، لَقَد فَكّرتُ كَثيراً بِقَتلِ نَفْسي ، أُريدُ التَخَلُصَ مِن هَذَا العَجزِ و إِن لَمْ استَطِع التَخلُصَ مِنهُ فأنا أُفَكِرُ بِأن أتَخَلَصَ مِن نَفسِي..

صَمتَ الطَبِيب مُصغياً لِكَلامِهَا..

قَامَ مِن مَكَانِهِ و طَلبَ مِنها أن تَستَلقيَ علىَ السَرِيرِ الذِي يُشبِهُ الكَراسِي الشَاطِئِيَةِ..

قَامَت مِن مَكَانِهَا لِتَستَلقي على كُرسّي الاعتِرافِ كَمَا يَعتَقِدُ البَعضُ ، و إنّما هَذا المَشَهَدُ مُرتَبِطٌ بِالحَالَةِ ذَاتِهَا ، قَبلَ أن يُدلي المُصَابُ بِمَا يحتَرِقُ في جَوفِهِ عَلِيهِ أن يُرِيحَ جَسَدَهُ و في أغلَبِ الأحيانِ و أن يُغلِقَ عَيناهُ..

استَلقَت إليزَابث على السَرِيرِ ، و أرخَت جَسَدَهَا لِسمَاعِ أسَئِلَةِ الطَبِيبِ ، إنَّهَا قَلِقَةٌ بَعضَ الشَيءِ ، و لَكِنَها لا تَعلَمُ مَا هُوَ سَبَبُ القَلَقِ..

دَائِمَا كَانَ الطَبِيبُ يَعتَقِدُ بِأنَّ الحَالَةَ التي تَأتِيهِ قَد وَصَلت إلى حَتفِهَا الأخَيرِ ، و صَاحِبُ الحَالَةِ لَمْ يَعُد يَقوى على ما يَجري في دَاخِلِهِ ، و هَذا الذِي جَعَلَهُ يَأوي لِلجُوءِ إلى مَأوى يُخَلِّصْهُ مِن هَذا التَخَبُطِ الدَاخِلي..

الوَهَنُ ، الحُزُنُ ، القَلَقُ ، الاكتِئَابُ ، الضَعفُ..

هَذهِ الحَالاتُ هي الأكثَرُ تَأثيرَاً في العَالَمِ على المُجتَمَعَاتِ التي تَتَسَابقُ إلى الحَضَارَةِ ، و قَدْ تَسَربَت في الآونَةِ الأخَيرَةِ هَذِهِ الأمراضُ بِشَكلٍ مُكَثَفٍ ، مِمَا أدى إلى تَضَاعُفِ الحَالاتِ على أبوابِ الأطِباءِ النَفسِيينَ ، اليابان ، الصين ، ألمانيا ، فرنسا ، الولايات الأمريكِية المتحدة ، هَذِهِ الدُولُ العِملاقَةُ التي جَعَلَت من هَذا الكَونِ قَريَةً صَغِيرَةً في الإبتِكَاراتِ و المُواصَلاتِ إن كَانَ حَرَكِياً أو إلكترونِياً ، مِن أكثَرِ الدُوَلِ تَنَاولاً لِعَقَاقِير الأدويَةِ النَفسِيَةِ ، فَقَد اِنتَشَرَت العِياداتُ النَفسِيَةُ لِلتَخفِيفِ مِن حِدَةِ هَذهِ الإصَاباتِ النَفسِيَةِ اِنتِشاراً غَيرَ مَسبوقٍ مِن نوعِهِ ، و كَمَا تَقولُ الدِراساتُ التي أَجرَتها المُنَظَمَةُ العالَمِيَةُ لِلصِحَةِ في جِنيف :

نَعتَقِدُ في عَامِ 2100 لِلميلادِ بِأنَ هَذَا العَالَم كُلهُ بِكَافَةِ أفَرادِهِ سَيخَضَعُ لالتِهَامِ العَقاقِيرِ المُهَدِئَةِ لِلتَخفِيفِ مِن حَالاتِ الإكتِئابِ و القَلَقِ و التَوتُرِ..

و هَذَا ناتِجٌ عن ضَغطٍ دَاخِلِيٍ سَبَبُهُ المُحيطُ الخَارِجي .. رُبما يَكونُ تَأثِيرُهُ اِجتِماعي أو أُسَري أو سِياسي أو اقِتصادي..

و حَتى على سَبِيلِ العلاقَاتِ العَاطِفيَةِ كَالحُبِ و الكُرهِ فَإِنَّهَا لَهَا تَأثِيراً حَادٌاً جِداً .. يَروحُ فيهَا ضَحايا و جَرائِمَ و على الأغلَبِ انتِحار..

الإنتِحَار:

هُو آخِرُ سِينَاريو لِرَدَةِ الفِعلِ التي يَتسَبَبُ بِها الشَخصُ لِقَتلِ نَفسِهِ عَمدَاً ، يُعَدُ هَذَا المَشهَدُ جَرِيمَةً في كُلِ القَوانينِ و الأعرافِ و الدِيانَاتِ السَمَاوِيَةِ ، و أسَبَابُهُ اضطِرابَاتٌ نَفسِيَةٌ كَاليَأسِ و الاكتِئابِ و الانفِصامِ و الهَوسِ و الإدمَانِ على تَنَاولِ الكُحولِ و تعَاطي المُخّدَراتِ ، أما مَا يَجري خَلفَ هَذِهِ الأسبابِ هِي عَوامِلُ عِدَةٌ كَمُشكِلاتِ الفَشَلِ العَاطِفي و المَصَاعِبِ المَالِيَةِ و هَلُمَ جَراً مِن حَالاتٍ لا تُعَدُ و لا تُحصَى..

كَمَا أنَ مُنَظَمَةَ الصِحَةِ العَالَمِيَةِ أكَدَت بِبَيانٍ لَهَا بِأنَها سَجَلَت في الآوِنَةِ الأخيرَةِ 80% مِن هَذهِ الحَالاتِ مَا بينَ مَتوسِطِي الدَخَلِ و سُكَانِ الدُولِ الفَقِيرَةِ..

و تَقُولُ الوَقائِعُ الشَائِعَةُ و الوَسَائِلُ لِلتَخلُّصِ مِنَ الحَياةِ على حَسَبِ اختِلافِ الطُرُقِ الأكثَرِ شيوعاً لِلانتحَارِ على حَسَبِ البَلَدِ أنَ الذِينَ يَقتُلونَ أنفُسَهُم يَعتَمِدُونَ على هَذِهِ التَجارِبِ : كالشَنقِ و التَسمِيمِ و إلقاءِ أنفُسِهم مِنَ الأبنيَةِ الشَاهِقَةِ و بِالأسلِحَةِ النَارِيَةِ و بِالحَرقِ أو الغَرَقِ..

أمَا الإحصَائِياتُ التي تَحصُدُ الأرواحَ تُشِيرُ بِأنَ هَنَاكَ مَا بِينَ 800،000 إلى مِليون ضَحِية يَموتُونَ كُلَ عَامٍ انتِحَاراً ، و مُعدَّلاتُ الذُكورِ أكثَرُ مِنَ الإناثِ حَيثُ أنَ الذُكُورَ أكثَرُ عُرضَةً لقَتلِ أنفُسِهم مِنَ الإنَاث بِقَدرِ ثَلاثٍ إلى أربَعِ مَرّاتٍ ، و أمَا مُحَاولاتُ الفَشَلِ التي لم يُحَالِفُها الحَظُ بأن يَموتُوا انتِحَاراً يُقَدَّرُونَ بِنَحوِ عَشَرةٍ إلى عِشرِينَ مِليونِ مُحَاوَلَةٍ انتِحَارِيَةٍ فَاشِلَةٍ كُلَ عَامٍ..

وَحَدَهُم اليَابَانِيونَ مَن فَهِمَ فَلسَفَةَ الانتِحارِ و رَأوا بِأنَهَا فَضِيلَةٌ لِلتَكَفِيرِ عَن الفَشَلِ ، فَهُم في مُعتَقَدِهم في دِيانَةِ السَاموراي على حَسَبِ طُقُوسِ السيبوكِو يُعَدُ الإنتِحارُ تطهِيراً لِلنَفسِ مِنَ الفَشَلِ الدُنيَوي..

الفِسيولوجِيا المَرَضيَة للإنتِحارِ تَقولُ :

يُعتَقَدُ بِأنَ الأسبابَ وَاضِحَةٌ كَتفَاعُلِ العَوامِلِ السُلوكِيَةِ و الإجتِمَاعِيَةِ و البِيئِيَةِ و النَفسِيةِ ، و إنَ المُستَوياتِ المُنخَفِضَةِ مِن عَامِلِ التَغذِيَةِ العَصَبيَةِ المُستَمَدِ مِنَ الدِمَاغ bdnf ، تَرتَبِطُ بالإنتِحَارِ، سَواءً بِشكلٍ مُبَاشَرٍ أو غَيرِ مُباشَرٍ مِن خِلالِ دُورِهَا في الإكتِئابِ الحَادِ ، و اضطِرابِ مَا بَعدَ الصَدمَةِ ، و انفِصَامِ الشَخصِيَةِ ، و اضطِرابِ الوَسواسِ القَهري..

و قَد وجِدَت دِراساتُ مَا بَعدَ وَفاةِ الضَحِيَةِ اِنخِفاضَاً في مُستَوياتِ عَامِلِ التَغذِيَةِ العَصَبِيَةِ المُستَمَدِ مِنَ الدِمَاغِ في قَرنِ آمون و قِشرةِ الفَصِ الجَبهِي ، سَواءً لَدى أولَـــئِكَ الذين يُعَانونَ أو الذِينَ لا يُعَانُونَ من حَالاتٍ نَفسِيَةٍ ، و يُعتَقَدُ أنَّ السِيروتونِين ، و هُو نَاقِلٌ عَصَبيٌ في الدِمَاغِ ، يَــكونُ مُنخَفِضَاً لَدى أولَئِكَ الذِينَ يَقومُونَ بِالإنتحَار ، و يَستنِدُ هَذا جُزئياً إلى وجُودِ دَلِيلٍ على زِيادَةِ مُستَوياتِ مُستَقبِلاتِ ht2a-5 بَعدَ المَوتِ ، و تَتَضمنُ الأدِلَةُ الأُخرى اِنخِفَاضَ مُستَوياتِ أحَدِ نواتِجِ تَحلُلِ السيروتُونِين ، و هُو حمض 5- هيدروكسي إندُول اسيتيك في السَائِلِ الشَوكِي الدِمَاغِي ، و مَعَ ذَلكَ فَمِنَ الصَعبِ جَمعُ الأدِلَةِ المُبَاشَرَةِ ، كَمَا يُعتَقَدُ أيضَاً أنَّ عِلمَ التَخَلُقِ ، و هَوَ دِراسَةُ التَغيُراتِ في التَعبِيرِ الجِينِي

استجِابَةً لِلعَوامِلِ البِيئِيَةِ التي لا تُغَيرُ مِنَ الحَمضِ المَنَويِّ الكَامِنِ ، و يُعتَقَدُ بِأَنَّهُ يَلعَبُ دَوراً في تَحدِيدِ خُطورَةِ الإنتِحَارِ..

إستَلقَى الحُزنُ بِجَانِبِهَا على سَريرِ العَافِيَةِ ، و هَمسَ الجَزَعُ في أُذُنَي صَمتِهَا : لا تَقلَقي عَزيزَتي أنَا بِجَانِبِكِ..

هُمُ المُتألِمونَ وَحدَهُم من يسَمعُ ذَاكَ الصُراخَ بينَ أقفاصِ صُدورِهم الصَلبَةِ ، إنَّ الألَمَ الذِي يتحطَمُ في جَوفِهم كَنارٍ ضَروسٍ تَأكُلُ بَعضُهَا بَعضاً في تَنورِ قُلوبِهم ، لَيسَ لَهُم لَيلٌ ليُخَرِسَ ذَاكَ العَويلَ الهَادئ ، و ليسَ لَهُم نَهَارٌ لَيصحوا معَهُم الحَنين ، لَمْ تَعُد قواهُم تَحتَمي بِدروعِ التَحمُلِ ، لِأنَ سِهامَ اليأسِ سَطَت على أَعصَابِهم..

هُمُ الأَشقِياءُ الذِينَ يرونُ هَذا العَالَمَ مِن ثُقبِ إبرةٍ ، و يَعلموا عِلمَ اليقِينِ بِأنَهُم خُلِقوا مِن رَحِمِ الألَمِ ، و أنَ الأمَلَ بِالنِسبَةِ لَهُم شَيءٌ مَحذُوفٌ مِن مَدرَسَةِ الحَياةِ ، لَيسَ خَوفَاً مِنَ التَجرِبَةِ .. كَلاّ بَل لِأنَ حَياتَهُم كُلُها تَجارِبٌ ، عَزمُوا على أن لا

يَخُوضوا الكَرَةَ مَرَةً أُخرى ، و أَنْ لا يُغريهم نَشيدُ الطَامِحينَ ، فَفَروا إلى الخَلوَةِ مَعَ النَفسِ و الأحلامِ التي لا تُسمِنُ و لا تُغني مِن جَوعٍ ، و لكَأنَ القَدرَ وَجدَ لَهُم فَتوى تُخرِجُهم مِنَ الفَراغِ ، صَارخاً بِهم قَائِلاً :

هَيا إلى السَجائِرِ ، إلى الكُحولِ ، إلى المُخدّراتِ ، إلى إِضاعَةِ الوَقتِ ، إلى رِفاقِ السُوءِ ، اسرِقوا و اقتُلوا و خَالفِوا القَانُونَ ، فَالفَشَلُ يَنتَظِرُكُم ، فِإن زَادَ اليأْسُ و ارتَفَعَ فَوقَ حَدهِ فانتَحِروا..

كُل يَومٍ أرَاهُم شُبانٌ في مُكتَمَلِ العُمُرِ ، جَمَّلَهُمُ الخَالِقُ بِخِلقَةٍ مُرصَعَةٍ بِالجَمَالِ ، قَد ثَقَبوا أُنُوفَهُم و آذَانَهم و جُلودَهم بِالنارِ و الحَدِيدِ ، و شَوهوا أجسادَهُم بِما يُسَمَّى الوَشم و الرَسم الذِي لا يَمحُوهُ سِوى دُودُ القُبورِ ، و صَبغُوا شُعُورَهُم بِألوانٍ عِدَةٍ ، و أطَالوا أظَافِرَهُم..

كُلَ يَومٍ و أنا أتنَقَلُ مِن مَنزِلي إلى مَكَانِ عَملي ، أُشَاهِدُهُم كَيفَ يَفتَرِشُونَ الطُرقَاتِ ، و يَحتَسُونَ سَجائِرَ الحَشِيشِ كَالنَقبِ الهِندِي و يَشرَبونَ الكُحولَ الثَقِيلَةَ كَالبِيرَةِ و الوِيسكي و النَبيذ ، و يَتعَاطُونَ أَنواعَ المُخدِراتِ كالهيروين ، و الأفيون ، و الباربيتيورات..

أيَةُ حَياةٍ يَعيشُهَا هَؤلاءِ ، فَبعَدَ أن اقتَربتُ إليهِم و عَايَشْتُهم عَن قُربٍ ، و استَمَعتُ إلى أحَوالِهم ، عَرَفتُ بِأنَهَم ضَحَايَا هَذَا المُجتمَعِ المُتَحضِرِ ، سَألتُ أحَدَ المُتسولاتِ ذَاتَ مَسَاءٍ بَعدَ أن اشتَرَيتُ لَها قِطعَةَ بِيتزا مِن أحدِ الأفرانِ التِجارِيَةِ في العَاصِمَةِ فِيينا

ـ مَا اسمُكِ !؟

رَاحت تَنهَشُ قطِعَةَ البِيتزا بِشَرَهٍ ، فَتركتُها حَتى تُنهِي طَعَامَهَا ، فَاشتَريتُ لَهَا قِطعَةً أُخرى و

زُجَاجَةَ مَاءٍ ، و التَهمتَهَا حَتى أدرَكتُ أَنَّها شَبِعَت ، لَها رَائِحَةٌ نَتِنَةٌ ، و مَع ذَلكَ فَإنَ تَطفُلي لَمْ يَمنَعني مِن أن أستَمِعَ إلى ما أَوصَلهَا إلى هَذِهِ الحَالَةِ ، سَحَبَت سِيجَارَةً مِن حَقِيبَتِهَا التي لا تَملِكُ سِواها ، و قَالت لِي :

ـ هَل مَعَكَ عُودُ ثِقابٍ سَيدي.. !!

قُلتُ لهَا مُبتَسِماً:

ـ لا تَقلقِي سَوفَ أشتَري لَكِ أعَوادَ ثِقابٍ..

و بِالفِعلِ اشتَريتُ لَها أعَوادَ ثِقابٍ ، و أشعَلَت سِيجَارتَها ، و قَالت:

ـ أنَا إسمِي رِينَاته .. على مَا يَبدو أنَّكَ رَجُلٌ ثَرِيٌّ جِداً ، أنَا آسِفَةٌ جِداً أنَا مُنذُ ثَلاثَةِ أيامٍ و أنَا لَمْ آكُل ، لَقَد اشتَريتُ بِأموالِي حُبوبَ الكِبتَاجون و شَرِبتُها جَميعَها..

ضَحِكَت رِينَاته مِن أعمَاقِ قَلبِهَا ، لَكَأنَها تَسخَرُ مِن صَنِيعِها ، و مِن حَالِها الرَثِ ، لَقَد عَلِمتُ بِأنَّها لَمْ تَعُد تَقوى على التَفكِيرِ و لَمْ تَعُد تُريدُ أن تَتَحمَلَ هَذا العَالَمَ الحَقِيرَ، و لَمْ تَعُد تُؤمِنُ بِالأقنِعَةِ ، و لا تُرِيدُ أن تُعِيدَ لِعَقلِهَا إدراكَهُ ، فَالنِسيانُ بِالنِسبَةِ لَها مِن أكبرِ أنواعِ السَعادَةِ ، فَمُستَعِدَةٌ أن تَشتَريَ النِسيانَ بِجَسدِها إن كَلَّفَها هَذَا الأمرُ..

سَألتُهَا مَرَةً أُخرى كَمْ عُمُرُكِ يا رِينَاته!!

اِبتَسمَت و هِي تَسحَبُ آخِرَ مَا تَبقَى مِن دُخَانِ سِيجَارَتِهَا و قَالت :

لَمْ يَعُد يُهِمُني مَا هُوَ عُمرِي ، فَكُلُ ما يُهِمُني أَنَني أُرِيدُ أن أَنسَى ، و لَكِن سَأُخبِرُكَ لِأَنَّكَ رَجُلٌ طَيبٌ جِداً ، لَقَد أصبَحَ عُمرُي مُنذُ اِسبوعَين سَبعَةٌ و عُشرونَ عاماً على مَا أعتَقِدُ..

تَخَيَل يا سيدي ، لَمْ يَأتِ إليَّ أحَدٌ لِيحَتَفِلَ بِعِيدِ مِيلادِي ، فَليذهَب هَذا العَالَمُ المُنَافِقُ إلى الجَحِيمِ ،إنني لستُ بِحاجَةٍ إِليهم، و أتمنَى الموتَ لَهُم جَمِيعاً..

أدرَكتُ بِأنَها غَاضِبَةٌ .. فَسألتُها مَرَةً أُخرى:

- و مَن هُم !؟

ضَحِكَت مَرةً ثَانِيَةً ، و لَكِن مَصحُوبَةٌ تِلكَ الضِحكَةُ بدَمَعَةٍ ، تَندمت علَيهَا آنِفاً ، و قَالتْ :

- مِن أبِي و أُمي ، سَأُخبِرُكَ عَن هَذَا السِرِ الذِي جَعَلنِي أُحِبُ النِسيانَ ، لَقد تَزوج أبِي و أُمِي قَبلَ انتِهَائِهما مِنَ الجَامِعَةِ ، و لَكِن بَعدَ الحَملِ الذِي بَشّرَ بِقدومِي إلى هَذهِ الدُنِيا و يا لَيتَني لَمْ آتي ، دَبَّ الخِلافُ بِينَهُما ، و جِئتُ إلى هَذِهِ الدُنِيا وَسَطَ مَعرَكَةٍ عَائِلِيَةٍ لَمْ و لَنْ تَنتَهي ، فَأرادَ وَالدِي أن يَنتَقِمَ مِن وَالِدَتي فَتَزَوَجَ اِمرأةً عَاهِرَةً ، و وَقعَ

الطَلاقُ و أرَادت أُمِي أن تَنتَقِمَ مِن وَالدِي فَألقَت بِي في بِيتِ تِلكَ العَاهِرةِ ، و تَزوجَت وَالِدَتي بِرَجُلٍ ثَري..

لَقد كَبُرتُ على الأذى النفسي و الجسَدي مِن قِبَلِ زَوجَةِ أَبي تِلكَ المَرأةُ الشَمطاءُ ، حَتى أصبَحَ عُمري عِشرونَ سَنَةً ، و أنَا أجهَلُ مَا يَدورُ في هَذَا الكونِ ، تَعّرفتُ في الجَامِعَةِ على صَدِيقَةٍ لي تَتعَاطى المُخدّراتِ ، في البِدَايَةِ رَفضتُ و لَكن كُنتُ بِحَاجَةٍ إلى شَيءٍ يُنسِيني ما ألمَّ بِي ، و كَانت صَدِيقَتي التي تَلتَهِمُ المُخدّراتِ مِن أعزِ الصِدِيقاتِ لدَي ، فَكَانت تُحِبُني جِداً رُغَمَ مَا تَفعَلُهُ مِن أُمُورٍ لَمْ أكُن مُقتَنِعَةً بِهَا ، حَتى عُدنَا ذَاتَ مَساءٍ إلى مَنزِلِها مُحتَفِلَتينِ بِتخطِينا المَرحَلَةَ الثانِيَةِ لِلجَامعِةِ ، كُنتُ في دُوارٍ آخَر و عَالَمٍ

سُفلي مِنَ الكُحُول التي شَرِبنَاها نَخبَـــاً لِنجَاحِنَا ، فَأعطَتني مَادَةً كَالدَقِيقِ الأبيَضِ و قَالت لي:

ـ عَلِيكِ بِشمِها..

و فِعَلاً هَذا مَا حَدثَ ، لَقد شَمَمتُها و أنَا أشعُرُ بَكَامِلِ السَعَادَةِ و النَشوَةِ ، فَكُلَما ضَاقَ صَدري و تَكالَبَت عَليَّ هُمُومُ الدُنِيا و قَسوَتِهَا استَعنتُ بِصَدِيقَتي ، و لَجَأْتُ إِلِيها لِتُعِينَني على شَمِ شَيءٍ مِن ذَاكَ المُخَدِرِ السَعِيدِ الذِي أنصَحُكَ بِهِ..

مِسكِينَةُ رِينَاته .. لَمْ تَعلَمْ بَعدُ بِأنَني طَبِيبٌ للأمراضِ العَقلِيَةِ ، تَركتُهَا تَتَحدثُ و أنَا استَمِعُ لَهَا بِنهَمٍ ، و بينَ حُزنٍ و تَأنِيبٍ لِلضَمير رَاحت تَسيلُ دُموعُها على خَدِّيها .. أكْمَلَت حَدِيثَها:

هَل تَعلَم يَا سَيدِي بِأنَنَا نَحنُ أسعدُ النِاسِ في هَذَا الكونِ ، لا تَعلَمُ مَا الشَيءُ الذِي يُراوِدُنا بَعدَ دقَائِقَ مِن اِلتِهامِ هَذِهِ الطَاقَةِ الهَائِلَةِ التي تُسَاعِدنا

على النِسيانِ و الإستِمرَارِ في أن نَتَنَفَسَ ، لم يَعُد مُهِمَاً إن تَنفسَنا أو لَمْ نَتَنَفَس فَالأمرُ أصبَحَ مَحضَ كِذبَةٍ ، لِأَنَنا يَا سَيدِي نَحنُ نَعيشُ بينَ أُنَاسٍ كَاذِبِينَ ، أوَلَهُم وَالِدَتِي الحَقِيرَةُ مُنتَهِياً بِوالدِي القَذِرِ ، هَذِهِ الفَتاةُ التِي تَعاطَفتُ مَعَهَا في الطَرِيقِ كَانت مِن أقوى النَاسِ و أشجعَهُم بِالصَبرِ و التَحَمُلِ ، و لَكن الرَبَّ جَعَلَ لِكُلِ شَخصٍ طَاقَةً مُحَدَدةً لِاستِيعَابِهَا ، و إن بَذلتُ كُلَّ قِوايَ لتَحَمُلِ زَوجة وَالدِي العَاهِرَةِ ، و إِهمَالِ والِدي الجَبانِ ، و نِسيانِ وَالِدَتي السَاقِطَة ، يا سَيدِي نَحنُ لَسنَا حُثالَةَ هَذا المُجتَمَعِ بَلْ نَحنُ ضَحاياهُ ، الذِينَ لِمْ يَتَحَمَلوا قَذَارةَ هَؤلاءِ الناسِ الذِينَ يُطَلقُ عَلَيهِم بَنو البَشَرِ ..

نَعم إنَّهَا رِينَاته..

و لَكِن مِثْلُ هَذِهِ الحَادِثَةِ حَصَلت مَعي عِندما أَرَدتُ التَوجُهَ إلى أحدِ المَحَالِ التِجَارِيَةِ في الحَيِّ الخَامِسِ عَشر أحدِ أحياءِ العَاصِمَةِ فِيينا..

أوقَفتُ سِيارَتي في أَحَدِ المَوَاقِفِ المُرورِيَةِ و نَزَلتُ مِن مَركَبَتِي و تَوجَهتُ إلى المَتجَرِ ، وَقعَت عَيني على اِمرأةٍ تَلتَحِفُ عُيونَ المَارَةِ و تَفتَرِشُ رَصِيفَ أحدِ مَدَاخِلِ الأبنِيَةَ في ذَاكَ المَكَانِ..

دَخَلتُ المَتَجَرَ و اشتَريتُ بَعضاً مِنَ الفَواكِه و المُكسَراتِ و الخُبزِ، و خَرَجتُ ، و لَكِن عُدتُ مِنْ نَفسِ المَكَانِ لِأُشَاهِدَ تِلكَ المَرأةِ مَرّةً أُخرَى..

إنَّهَا تَتَحركُ ، كِدتُ أَنْ أقتَرِبَ إلَيها ، و لَكِنَّ الذِي جَعَلَنِي أتوَجَسُ و أُفَكِرُ بِالَموضوعِ هُوَ أَنَّ كَلبَهَا سَوفَ يُسَبِبُ لِي المَتَاعِبَ إن اِقتَرَبتُ إلَيها أكثَر..

مَا إِن وَصَلتُ بِمُحَاذَاتِهَا حَتَى استَيقَظَت ، فَقُلتُ لهَا :

ـ مَرحَباً..

نَهَضَت تَنظُرُ إِليَّ و لَكِّنَ كَلبَهَا أرادَ أن يَهجُمَ عَليَّ لَولا أن زَجَرَتهُ لِتُخرسَ نُباحَهُ .. قَالت لِي:

ـ أهلاً و سَهلًا بِكَ سِيدي ، أنتَ تَحمِلُ كَثِيراً مِن أكياسِ الطَعامِ ، على مَا يَبدُو أَنَّ لَدَيكَ وَلِيمَةٌ أو أُمسِيَةٌ جَمِيلَةٌ.. !!

ضَحِكْتُ مِن مُزاحِهَا أو رُبما سُخريتِهَا و قُلتُ لَهَا هَل أنتِ جَائِعَةٌ !!؟

أمسَكت زُجَاجَةَ مَاءٍ بِجَانِبِهَا و سَقَت الكَلبَ الذِي بِرِفقَتِهَا و شَرِبَت مِن نَفسِ الزُجَاجَةِ ، فَعلِمتُ بِأَنَّهَا امرأةٌ طَيبَةُ جِدَاً ، و قَالت :

ـ و إذا قُلتُ لَكَ بِأَنَنِي أنَا و كَلبي جَائِعَينِ .. هَل سَتُحضِرُ لَنَا الطَعَامَ و تُطعِمُنَا ؟؟..

نَظَرتُ إلى نُحلِهَا و نُحلِ كَلبِهَا و زَادَت شَفقَتي عَلَيهِما ، و ابتَسمتُ ابتِسَامَةً كالذِي يُعطي الأمَانَ لأِعدَائِهِ ، و قُلتُ:

ـ طَبَعَاً ، و بِكُلِ سُرورٍ عَزِيزَتي..

ـ هَل أستَطِيعُ أن أضَعَ في حَوزَتِكِ هَذِهِ الأكياسُ حَتى أشتَري لَكُما الطَعَامَ!!

ـ حَسنَاً سَيدي أنَا مُحرَجَةٌ مِنْكَ ، و لَكِن ضَعها هُنَا..

اِبتَسَمتُ مَرَةً أُخرى لَها و قَلتُ:

ـ لَن أتَأخَرَ ، عِشرونَ دَقِيقَةٍ و سَأكونُ مَعَكِ..

ذَهَبتُ إلى المَتجَرِ و دَخَلتُ القِسمَ الخَاصَ بِطَعَامِ الحِيوانَاتِ ، و اشتَرَيتُ بَعضَ المُعَلّباتِ لِكَلبِهَا تَكفِي لثَلاثَةِ أيامٍ ، و اشتَريتُ لَها الخُبزَ و الحَليبَ و اللَحمَ المُقدَدَ و شَيءٌ مِنَ الفَواكِهَ ، و مُعَلّباتِ السَـمَكِ..

و مَشيتُ إِليهَا بِيدِينِ مُمتَلِئَتَينِ بِفوضى الأكياسِ ، حَتى وَصلتُ إِليهَا ، و قَدّمتُ الطَعَامَ لَها و لِكَلبِها ، قَالت بِخَجَلٍ :

شُكراً لكَ سَيدِي ، أنَا خَجِلَةٌ مِنكَ كَثِيراً..

و بَدَى الأسَى على وَجهِها ، و هِيَ تَستَخرِجُ الطَعامَ لِكَلبِهَا ، و تَفتَحُ لَهُ المُعَلّباتِ ، و رَاحَت تَأكُلُ مِن طَعَامِها الخَاصِ و تَنظُرُ إلى المَارَةِ ، قَالت :

ـ تَفَضَل سَيدِي كُل مَعي.. !!

ـ لا شُكراً .. و لَكِن مَا هُوَ اسمُكِ !؟..

قَالت :

ـ شتيفانِي .. و كَلبي اِسمُهُ : بُوتِشي..

أكمَلَت طَعَامَها و أخرَجَت مِن حَقِيبَتِهَا زُجَاجَةَ الجُعّةِ ، و رَاحَت تَشرَبُ نَخَبَ التَّشَرُدِ ، حَتى تَبَلّلَت مَلابِسُها قُلتُ لَها :

ـ رائِعْ اِسمٌ جَمِيلٌ جِدَاً .. و لَكِنْ هَل لَكِ عَائِلة!!

قَالت :

ـ إِنَّ كَلبي هَذا هُوَ عَائِلَتي ، لِأَنَّهُ الشَخصُ الوَحِيدَ الذِي يَفهَمُ مَا أُرِيدُ ، و لَو رَأيتُ أحَداً مِنَ العَائِلَةِ التي انتَمي إِليهَا سَوفَ أتفُلُ في وَجُوهِهم..

قُلتُ :

ـ لِمَاذَا !!؟..

قَالت :

ـ تَخيّل يَا سَيدِي بِأنَّ الذِي أوصَلَني إلى هَذِهِ الحَالَةِ هُمُ العَائِلَةُ القَذِرَةُ التي أَنتَمي لَها ، أَتَمَنّى الموتَ لَهُم ، أَتَمَنّى أن يَموتوا غَرَقاً أو حَرقاً أو بِزلزالٍ ، أُريدُ أَنْ أرَاهُم أمَامِي يَموتُونَ قَهرَاً..

قُلتُ :

ـ و لمَاذا هَذا الحِقدُ عَلى عَائِلَتِكِ.. !!

رَاحَت تَمسَحُ وَجهَها المُبتَلَ مِن سائِلِ الجعةِ ، و حَاولَت أَنْ تَتَهربَ مِنَ السُؤالِ بِسؤالٍ آخَر :

ـ هَل مَعَكَ سِيجَارةٌ سِيدِي.. !!

أعَطِيتُهَا سِيجَارةً مِن بَعدِ أَنْ أَشعَلتُهَا لَها ، كَادَت تَبكِي لَولا أَنْ بَاشرتُها بِالمُمَازَحَةِ ، قُلتُ لَهَا :

ـ لَو كَانَ هُنَاكَ كَأسٌ لشَرِبتُ مَعَكِ..

ضَحِكَت حَتى تَمَايَلَت و سَقَطَت على الأرضِ مَغشياً عَلِيهَا مِنَ القَهقَهَةِ ، عِندما جَفّت يَنَابِيعُ الضَحِكِ ، قَالت :

ـ يا سَيدِي أنتَ رَجُلٌ تَرتَدِي ثِياباً بَاهِظَةَ الثَمَنِ ، و على ما يَبدو أنَّكَ رَجُلٌ مُهِمٌ جِداً في هَذَا المُجتَمَعِ ، و لا يَليقُ بِكَ أَنْ تَجلِسَ بِجَانِبِي و تَشرَبَ مَعي الجُعّةَ الرَدِيئَةَ .. إذهَبْ إلى تِلكَ الفِئَةِ التِي تَتَفاخَرُ بِحَفلاتِهَا و أنواعِ سِيارَاتِهَا و رَبْطَاتِ عُنُقِهَا..

- بِحَقِ السَمَاءِ ، كَمْ دَعوَةً تَلقِيتَ لِحُضُورِ الحَفلاتِ الارِستُقرَاطِيَةَ ،كَمْ مِن وَلِيمَةٍ أَلقيتُم في النِفَاياتِ ، كَمْ مِن عَقارٍ تَملِكُونَ.. نَحنُ وَحدَنَا المُشرَدونَ في هَذَا العَالَمِ مَن فَهِمَ فَلسَفَةَ الحَياةِ ، فاتخَذنا الأرصِفَةَ مَنَازِلَ لنا ، و الطُرُقَاتِ مُلتقَى لِبُؤسِنا ، نَحنُ الذِينَ نَعيشُ يَومِنَا كَما هُو ، لا يُوجَدُ ما نَخَافُهُ سِواكُم ، و لا يُوجَدُ مَا نَفقِدُهُ ، و آخِرُ مَا فَقدنَاهُ ثِقَتُنَا بِكُم ، لا أَعلَمُ مَا يُسَمَى هَذا الرُقي في مُجتَمَعِكُم ، نَحنُ نُسَمِيهِ فَسادٌ أَخلاقِيٌ..

تَركتُ شِتِيفانِي تَتَحدثُ بِمِزاجِها ، و هِيَ تَأخُذُ مِن عُلبَتي سِيجَارَةً و تَسحَبُ مِنهَا سِيجارَةً تِلوَ الأُخرى ، تَركتُهَا تَشتُمَ و تَلمِزُ..

عَرَفتُ بِأنَ الذِي أوصَلهَا إلى هَذِهِ الحَالَةِ هُوَ عَدَمُ الإنصَاتِ لِهَذِهِ الفِئَةِ مِنَ البَشَرِ ، هُنَاكَ ضُغُوطَاتٌ يَتَلقَــاها المَرءُ مِنَ المُجتَمَعِ ،يحتَمِلُ بَعضَها و

البَعضَ الآخَرَ لا يحتَمِلُها فَتَنقَلِبُ على نَفسيَتِهِ سَلباً لا إيجَاباً و خُصوصَاً تِلكَ العِينَةُ مِن بَنِي البَشَر ِالذِينَ لا يَتّقَبَلونَ الطَرفَ الآَخَرَ..

إنَّ لِكُلِ إنسَانٍ قَدْرٌ مُعَيَنٌ لِتَحَمُلِ مَشَاقِ الحَياةِ ، و ما إنْ زَادَت هَذِهِ الضُغُوطَاتُ على الإنَسانِ حَتى يَنفَجِرَ سَلبَاً أمَامَ المُجتَمَعِ و لَمْ يَعُد يَعِي مَا يَفعَلَهُ البَتَةَ .. عِندَما تَصِلُ تِلكَ الحَالَةُ إلى حَالَةِ المُنتَهى يَفرِزُ الجِسِمُ تِلقائِياً هُرمُونَاتٍ مُعَيَنَةٍ .. مِثَلَ : الأردينالين ، حَيثُ تَكونُ هَذِهِ الهِرمُونَات هِيَ المَسؤولَةُ عَنِ الاستِجَاباتِ التِلقائِيَةِ ، فَيرتَفِعُ مُعَدَلُ كَمِيةِ الأُكسِجِين المُؤدِيَةِ إلى العَضَلاتِ ، و بِهَذَا تَزدَادُ سُرعَةُ التَنفُسِ و كَمِيَةُ التَعرُقِ ، فَكُلُ رُدودِ الأفَعالِ تِلكَ تَجعَلُ الإنسَانَ مُستَعِداً لِلتَصَرُفِ في حَالَةِ الخَطَرِ المُحتَمَلِ..

رُبَما شِتِيفاني لَمْ تَتَحمَل مَا حَصَلَ مَعَها ، حَتَى وَصلَتْ إِلى هَذا المُنعَطَفِ مِنَ الجُنونِ الصَعبِ ..

أذكُرُ ذَاتَ لَيلَةٍ عِندمَا كُنتُ غَارِقاً في النَومِ..

عَزفَ جَرسُ الهَاتِفِ في الساعَةِ الثانِيَةِ في مُنتَصَفِ اللِيلِ أُعزُوفَتَهُ المُزعِجَةَ ، حَاولتُ أن أتَجَاهَل جَرسَ الهَاتِفِ حَتى صَمت.

ـ آآآه يا رَبَّاه .. غَداً عُطلَةُ نِهَايةِ الإِسبوعِ ، مَا هَذا الإِزعَاجُ. !!

عُدتُ لِإِخلُدَ إلى النَومِ ، و غَرِقتُ في نَومٍ عَميقٍ ، و لَكن هَذِهِ المَرة عَادَ الجَرسُ يَقرعُ بِقوَةٍ ، و لَكِنَهُ جَرَسُ المَنزِلِ ، قُمتُ مِن فِراشِي فَزِعَاً ، اِرتَدَيتُ مِعطَفي المَنزلي و وَضعتُ نَظّارَاتي الطِبِيَةَ ، و أسرعتُ نَحوَ البَابِ لِإرى مَا يجري ، حَقَاً إِنَّهُ أمرٌ مُخِيفٌ جِداً ، صَوتٌ خَلفَ البَابِ يَقولُ لِي:

ـ دُكتُور اِفتَحِ البابَ..

كَانَ يَطرُقُ البَابَ و يَضَعَ يَدَهُ على زرِ الجَرسِ..

ـ يا إلَهي مَاذا يَجرِي.. !!

شَعرتُ بِأنَني في حَربٍ عَالَمِيَةٍ..

فَتحتُ البَابَ ووَجَهتُ عَيني إلى فَتحَةِ البَابِ ..

يا رَبَّاه مَاذَا يَحدُثُ ، جَمعٌ هَائِلٌ مِنَ عَنَاصِرَ البُولِيس!!

ـ عِمتَ مَساءاً دُكتُور ، نَحنُ نَعتَذِرُ لإنَنَا أيقَظنَاكَ في هَذا الوَقتِ المُتَأخرِ مِنَ اللَيلِ ، و لـَكن يَجب أن تَـذهَبَ مَعَنا أو أن تَلحقَنا فَورَ اِرتِدَائِكَ لِمَلابِسِكَ..

ـ مَاذَا يَجرِي أخبِرني ، لَقد أُصِبْتُ بِالرُعبِ ، هَل هُنَاكَ شَيءٌ يَستَدعي كُلَ هَذِهِ الضَجَةِ و الإزعَاجِ..

لَقَد أطَرقَ الضَابِطُ رَأسَهُ قَائِلاً :

ـ بِكُلِ أسَفٍ هُنَاك جَرِيمَةُ انتِحارٍ حَصَلت في السَاعَةِ الوَاحِدَةِ لَيلاً ، وَ الضَحِيَةُ أحـدُ مُراجِعِيكَ

الجُدُدِ لِعِيادَتِكَ النَفسِيَةِ ، و قَدْ ألقَت بِنفسِها مِن مَبنَى مُرتَفعٍ مِن الطابِقِ السَابعِ في الحَيِّ السابِــعِ..

لَقد صُعِقتُ مِنَ الخَبَرِ ، حَتى تَلاشَى غَبشُ النُومِ مِن عَيني ، و ارتَــجَفَت أعصابي ، و كِــدتُ أَنْ أسقُطَ مِن هَذا الخَبَرِ المُؤسِفِ ، قُلتُ :

ـ رَبّاهُ ما الذِي أسمعَهُ ، سيدي الضَابط و مَا اسمُ الضَحِيَةِ !؟..

كَانَ الضَابِطُ مُتَرَدِداً بِإخباري عَن اِسمِ الضَحِيَةِ ، و لَكن فَكُ شِيفرةِ الخَوفِ على حَسبِ ظَنِهِ بي مُجِيباً على تَساؤلِي :

ـ إِنَّهَا المُدَرِسِةُ سيلفيا ، اِحدى مُدَرِساتِ المَرحَلَةِ الابتِدَائِيَةِ ، في المَدرَسَةِ الكَاثوليكيَةِ في الحَيِّ السَابِعِ..

لَقد أُصِبتُ بِالدَهشَةِ مِنَ هَذا الخَبَرِ الذِي مَرَّ على مَسامِعي كَالصَاعِقَةِ ، رُحتُ أهتّزُ و أَقولُ :

ـ حَسناً أِسبِقونِي و أنَا بَعدَ نِصفِ سَاعَةٍ سَوفَ ألحَقُ بِكُم..

أنصَرفَ الضَابِطُ مَعَ عَناصِرِ البُولِيسِ ، و بَدّلتُ ثِيابي و أَسرَعتُ إلى عِيادَتي في الحَيِ الأولِ و أحضَرتُ المَلفَ الخَاصَ بِسيلفيا مِن أجلِ أَنْ يَطّلِعَ الأمنُ العَام عَلى قَضيتَهَا ، و لَكِنْ كُنتُ أَقولُ في نَفِسي :

ـ أيُعقَلُ أن تَصِلَ سيلفيا إلى هَذِهِ الحَالَةِ ، و أَنْ تُنهي حَياتَها بِهَذِهِ الطَرِيقَةِ البشِعَةِ ، في لَيلَةٍ غَابَ فيهَا نُورُ القَمرِ و حَضرَ فيهَا الموتُ بِكَافَةِ عَتَادِهِ و وَحشيَتِهِ.. !!

في الخَامِسِ من فِبراير في هَذِهِ السَنَةِ أتَتَ سيلفيا إلى عِيادَتي ، كَانَت في بِدَايَةِ مُعَانَتِهَا مَعَ مَرضٍ

نَفسيٍ اصابَها بعدَ انفِصالِها عَن حَبِيبِهَا ، فَلَقَد رَأَّتهُ يَخونُها في مَنزِلِــها في أحَدِ الأيامِ ، و لَكِنَ قَلبَهَا و كِبريائِها لَمْ يَحتَمل مَشَهدَ الأجسَادِ العَارِيَةِ في بِيتِهَا و على سَرِيرِها ، و صُدِمَت بِهِ و بِصَنِيعِهِ ، فَفَتَحَت بَابَ مَنزِلِـها و طَرَدَتهُ و طَردَتِ العَاهِرَةَ التي كَانَت تَستَلقي بِجَانِبِهِ..

لَم تَحتَمل سيلفيا ، حَاوَلَت أَنْ تَتَنَاسَى ، و لَـكِن كَانَ جُرحُهَا أكبَرَ مِنَ النِسيانِ ، لَقَد شَارَ كَتهُ مِن شَبابِهَا أربَعَةَ سَنواتٍ مُنذُ تَخرُجِهَا مِنَ الجَامِعَةِ إلى أَنْ تَوظَفَت كَمُدَرِسَةٍ في اِحدى المَدارسِ الشِبهِ مُحَافِظة على مَلامِحِ الدِيّنِ الإنجيلي..

و وَعدَهَا بِأشياءَ كَثِيرَةٍ ، بِدايَتُهَا الحُبُ المُطَلَقُ و نِهايَتُها المُوتُ مَعاً ، لَقَد كَانَتِ الأحَلامُ أكبَرُ بِكَثِيرٍ مِنَ الأوهَامِ ، و لَكِن لَمْ يَبقَ لا حُلُمٌ و لا وَهْمٌ..

اِنتَظَرَتْهُ ، لَعلَهُ يَعودُ ، لَعَلَهُ يَعتَذِرُ لَها ، لَعلَهُ يُبرِرُ لَها ما جَرى ، كَم مِن لَيلَةٍ تَرَكَتِ البَابَ مَفتوحاً لِلهَواءِ ، و لَــكِنْ لِلأسَفِ لَمْ يَدخُل مِنهُ سِوى الهَواءِ ، كَمْ مِن سَاعَةٍ رَاقَبَت آخَرِ ظُهورٍ لَهُ على مَواقِعِ التَواصُلِ الإجتماعي ، كَمْ مِن لحَظَةٍ أرادَت أَنْ تُقنِعَ دَاخِلها بِأَنَهُ لن يَعودَ ، و لَكِنَ قَلبَها كَانَ أشَدُ إيمَاناً ، فَوقَعَتِ المِسكينَةُ ضَحِيَةً بينَ قَنَاعَةِ العَقلِ و إيمانِ القَلبِ..

أُصِيبَت المِسكينَةُ بِالقَلَقِ..

و الإرتِجَافِ الدَاخِلِيِّ ، و الوِحدَةِ القَاتِلَةِ ، و النَدَمِ على ما صَنَعَت مَعَهُ ، و حَاوَلَت مِراراً و تِكراراً أَنْ تُعِيدَ المِياهَ إلى سَواقِيهَا ، و لَكِن كَيف؟! ، و أَين؟! ، و مَتى؟.. !

وَحدَهُ كِبريائُهَا مَن كَانَ سَبباً في مَصائِبِهَا العَاطِفِيَةِ ، فلا مُنازَلَةٌ أمَامَ عَظمَةِ الكِبرياءِ ، و

آلهةِ عِزَةِ النَفسِ ، و بَدأتِ الأيامُ تَكوي طَيّاتِ قَلبِهَا بِلا رَحَمِة و لا ذَنبٍ ، فَلَقد كَانَ ذَنبُهَا الوَحيدُ أنَّها تُحبُهُ و مَعصِيتُها العَظيمَـةُ بِأنَّهُ نَسِيهَا ، مَا أقساهُ مِن رَجُلٍ و مَا أعظَمَـها مِن نَواةٍ مُغَطَسَةٍ بِالصَبرِ و التَحمُلِ..

أَتَت عِيادَتي ذَاتَ يَومٍ كالزَنبقَةِ التي تَكَادُ أَنْ تذبُلَ ، مُصَابَةٌ بِعِلَةِ القَلَقِ .. سَألتُهَا بعد ما سَرَدَت لي قِصَتَها :

ـ عَزيزَتي سيلفيا بِمَاذا تَشعُرِينَ عِندَما يَكونُ القَلَقُ في أعلى ذُروَتِهِ.. !!

قَالَت لي المِسكينَةُ يومَها :

ـ أشعُرُ بِالصُدَاعِ ، و بِغَصَةٍ في الحَلقِ ، و الإهتِياجِ و قِلَةِ الصَبرِ، و آلامٍ في البَطنِ ، و الإسهالُ المُتَكرِرُ ، و فرطٍ في التَعرُقِ ، و الإحساسُ بِتوتُرِ العَضَلاتِ ، و الارتِباكِ ، و

صُعُوبَةِ الخُلودِ إلى النَومِ ، و التَعَبِ الشدِيدِ و صُعُوبَةٌ في التَركِيرِ .. هَذِهِ هيَ أعَراضُ القَلَقِ حَقاً ، و هَذَا القَلَقُ مِن أشَدِ أنواعِ التَخبُطِ الدَاخِلِي..

كَانَت سيلفيا تُشبِهُ المَلائِكَةَ بِرِقَتِهَا ، أشهَى مِن قِطعَةِ الحلوى المُغَطَاةِ بِالكريمَة البَيضَاءِ ، لَقَد عَانَت كَثِيراً المَسكينَةُ ، حَتى ألقَت بِنفسَها مِن عُلُوٍ شَاهِقٍ ، حَتى تُريحَ نَفسَها و تَتَخلَصُ مِن هَذا القَلَقِ الذِي أجهَدَ قَلبَها..

لَقَد وَصَلتُ إلى قِسمِ البُولِيسِ في الحَيِّ السابعِ ، و رَافَقَني الضابِطُ المُشرِفُ على قَضيَتِهَا و الطَبِيبُ الشَرعِيُ إلى المُستَشفى في السَاعَةِ الرابِعَةِ قَبلَ بُزوغِ الضَوءِ صَباحَاً ، مِن أجلِ كَتَابَةِ تَقرِيرٍ مُفَصَلٍ قَبلَ تَسلِيمِ الجُثَةِ إلى ذَوِيهَا..

سَألَني الضَابِطُ و الطَبِيبُ الشَرعِيُ:

ـ مَا الذِي كَانت تُعَانِي مِنهُ بِالضَبط.. !!

قُلتُ بِحُزنٍ شَدِيدٍ بَعدَما أخرجُوا جَسدَها مِن ثَلاجَةِ الموتَى و وَضَعوها في المَشَرحَة:

ـ كَانَ لَدِيهَا مُشكِلَةٌ عَاطِفيَةٌ مَعَ حَبيبِهَا الذِي خانَها في مَنزِلِـها ، و بَعدَ طَردِهِ مِنَ المنَزِلِ ، و قَطعِ العِلاقَةِ كُلِياً كَانَت تَتَوقَعُ أَنْ يَعودَ إِليها مُعتَذِرَاً على مَا صَنَعَ و لَـــكِن مَرّت عِدَةُ أشهُرٍ و لَمْ يُرسِل لَهَا أيَةَ رِسالَةٍ هَاتِفِيَةٍ و لا خَطِيَةٍ ، فَأُصيبَت بِالقَلَقِ الحَادِ ، و أَتَتنِي مُنكَسِرَةً ، حَاولتُ أَنْ أُعالِجَها عِلاجاً طَبِيعِياً ، و لَكِن لَمْ يُجدي ذَلِكَ نفعَاً ، أعَطِيتُهَا عِدَةَ عَقَاقِير ، و على حَسَبِ التَحالِيلِ الأخيرَةِ لِمَلفِها رَأينا بِأنَها بَدَأَت تَتَعافى شَيئاً فَشيئاً .. رُبما هُو الكِبرِياءُ الذِي قَتَلهَا..

و المُجتَمَعُ لَهُ يَــدٌ في كُلِ كَارِثَةٍ شَخْصيَةٍ في هَذا العَالَمِ المُلوثِ بِالمِــكروباتِ ..

المُجتَمَعُ..

ذَلِكَ الشَبَحُ المُتنَكِر ُبِعِدّةِ أقنِعَةٍ..

هُم لَفِيفٌ مِنَ النَاسِ ولِدْتَ بِينَهُم ، أخَذْتَ مِن أطبَاعِهم ، مَكشُوفَاً أمَامَ قَنَاعَتِهِم ، تَدِينُ بِدِينِهم ، مِنهُم أهلُــكَ ، و مِنهُم مَن أَحَبَكَ ، و مِنهُم مَن أبغَضَكَ ، و طَالَما أنتَ بِينَهُم و مَعَهُم ، فَعَلِيكَ أَنْ تُحاوِلَ بِكُلِ جُهَدِكَ أَنْ تُرضِيهمْ ، تَعيشُ الدَهْرَ بِكُلِ قُوَتِكَ و ضَعفِكَ و جُنونِكَ و أنتَ تُحاوِلُ أَنْ تَجعَلَ الذِينَ مِن حَولِكَ رَاضِيينَ عَنكَ ، وَاقِفِينَ مَعَكَ ، مُصَفِقِينَ لَــكَ ، تُفني قُتُوَتَّكَ و شَبَابَــكَ و هَرمَكَ على قَاعِدَةِ :

حَذاريّ .. حَذاري .. حَذاري .. مِن كَلامِ النَاسِ..

تَباً لِلنَاسِ إنْ فَقَدْتَ عَقلَــكَ..

إِنَّ هَؤلاءِ القَومَ و حَتى مَن هُم أقرَبُ النَاسِ إِلَيكَ ، على اِستِعدادٍ لِأن يُسقِطُوكَ بِكَافَّةِ الوَسائِلِ لِإثباتِ وجُودِهم ، على هَذا الكَوكَبِ البَقاءُ لِلثَعالِبِ ، و الأَرانِبِ فإلى أفرانِ الشِواءِ..

اِستَمعْ جَيدَاً أَيُّهُا الأرنَبُ ، و هَذا الحَدِيث مُوجَهٌ لكَ ، عَليكَ أن تَسَعى جَاهِداً لِتَنبُتَ لكَ مَخَالِبٌ ، و لِتَخرُجَ لكَ أنِيابٌ ، و أن تَتَخلى عَن لُغَةِ الفِرارِ مِنَ الوحُوشِ ، و أن تَتَعلَمَ كَيفَ تَنقَضُ على الفَرائِسِ ، و إِن لَم تَفعَل هَكذا فسَوفَ تُداسُ و تُركَلُ و تُرمَى في هَاويَةِ الفَاشِلِينَ ، هَذا الكَوكَبُ مَبنيٌ على مُصطَلَحينِ:

فَإِما أن تَكونَ .. أو لا تَكون..

هَكَذا قُدِّرَ لَكَ أن تَقضي حَياتَكَ في مُواجَهَةِ المُجتَمَعِ و مُواجَهةِ ذَاتِكَ ، فَالمواجَهـةُ لَيسَت بِعيبٍ ، العِيبُ أن تُطرِقَ رَأْسَكَ لِضَعفِكَ و أن

تَستَسلِمَ لِمسلَخِ صَمْتِكَ ، لِيأُكلَكَ لَحماً و يُلقِي بِكَ عَظَماً ، هَل تَعلم بِأنَ وجُودَكَ عِلَةٌ على هَذا الكَوكَبِ إن لَمْ تُثبت وجُودَكَ بِشيءٍ يَصُبُ في مَصَلحَةِ الإنسَانِيَةِ ، و إن لَمْ يَكُن ذَلِكَ فَفي مَصَلحَتِكَ! ..

و أنتَ تَتَخَطى الأربَعينَ ، عَلَيكَ أن تُغلِقَ على نَفسِكَ بَابَ حُجرَتِكَ ، ضَعْ وَرقَةً و قَلماً ، و سَجّل إنجَازَاتِكَ حَتى و لو كَانَت في نَظَرِ العَالَمِ إنجَازَاتٌ إجرامِيَةٌ ، و احصِهَا و عِدها و كَرّر تَصفُحَهَا ، و أخبِرني ما الذي يَجولُ في خَاطِرِ.!

هَل أنجَزتَ أم ، أهمَلتَ .. ؟

أينَ ضَاعَ هَذا العُمرُ ، و لِصَالحِ مَن .. ؟

سَأقولُ لَكَ لَصالِحِ مَن .. إنَّهُ لِصَالِحِ فَشَلِكَ و تَخبُطِكَ و ثَرثَرَتِكَ ، الثَرثَرَةُ و الجُلوسُ في مَجالِسِ الثَرثَارينَ ووجُهَاءِ التَصنِيفِ ، هَؤلاءِ

الركَبُ مِن بَني الفَاشِلينَ ، و أنا الذِي أقُولُ عَنهُم قُطَّاعُ الطُرُقِ ، المُثبِطينَ لِعَزَائِمِ مَن سَاروا على دَربِ أحلَامِهم ، السَعيدُ مَن سَارَ على حُلمِهِ أَصَمُ الأُذُنَينِ لا يَستَمِعُ إلا إلى صَدى هَدَفِهِ يَهتِفُ لَهُ:

هَيا تَقَدَم .. هَيا أنَا أنتَظِرُكَ..

و التَعِيسُ مَن أنصَتَ لِزَنينِ البَعوضِ الذِي يَحشِرُ أَنفَهُ في خُطُواتِ الطَامِحينَ ، الذِي وَكَّلَ نَفسَهُ النَاصِحَ الأَمِينَ ، ذَلِكَ الحَشَرَةُ القَذِرَةُ عِندَما يَقولُ لكَ:

لا تَستَطِيع .. و سَيتَحدَثُ عَنكَ النَاسُ بِكذا و كَذا..

تَباً لَكَ و لِلنَاسِ إن كَانوا كَأمثَالِكَ ، فَإنَّ تَعِش مُجَمَدَاً و مُحَطَماً و مُتَوَجِساً مِن أن يُمسِكَ النَاسُ بِألسِنَتِهِم فَأنتَ قَد وَقَعتَ بِمَرَضٍ نَفسيٍ اِسمُهُ : الخَوفُ..

دَائِماً شَبَحُ الخَوفِ مَن يَصنَعُ لَكَ ضَباباً لِيَقتُلَ ذَلِكَ النَورَ الذِي تَخلَيتَ عَنهُ ، لا تَتَخلى عَنِ النُورِ مِن أَجلِ ألسِنَةِ النَاسِ المُظلِمَةِ..

أنتَ ظَالِمٌ و مَظلومٌ في آنٍ وَاحِدٍ..

ظَالِمٌ لِنَفسِكَ لِأَنّكَ أَوقفتَ بِنَاءَ قَنَاعَاتِكَ لِتُرضي قَنَاعَاتِ الآخَرِينَ ، و مَظلومٌ لِأَنَّكَ أحسَنتَ الإِصغَاءَ, بِيدَ أَنَّكَ يَجِبُ أن تَرفُضَ الإِصغاءَ لِمُحِطميك .. هَل أنتَ مُحَطَّمٌ.. !!

لَن أقُولَ لَكَ بِأنَكَ تَستَحِقُ ذَلِكَ .. و لَكن سَأقولُ لَكَ يَكفِيكَ تَـذّمُراً و تَأفُفاً و خَوفاً و خَجَلاً مِن نَفسِكَ..

إِنَّ كَلامَ بَني البَشَرِ لَن يَنتَهي ، فَعِندَما تُنهي طُموحَكَ بِأوَلِ سَهمٍ يُلقى عَلَيكَ فَهَذا يَعني بِأَنَّكَ جَبانٌ ، و لا تَلِيقُ بِكَ الأهدَافُ و النَجَاحُ..

هَل تَعلَم بِأَنَّكَ في هَذهِ الحَالَةِ عَالَةٌ عَلى هَذَا الكوكَبِ..

و أَنَّكَ مُضِرٌ بِالهَواءِ و المَاءِ و الفَضَاءِ كَأصحَابِكَ المُصنِفِينَ و الشّالينَ لِحَركَةِ النَاجِحينَ ، اِسَتمِع جَيدَاً يا عَزِيزِي:

إِنَّ القَادَةَ و النَاجِحينَ و المُمَيزِينَ و العَباقِرةَ و المُكتَشِفينَ في هَذَا العَالَمِ قَد ذَاقُوا مِن كَلامِ البَشَرِ ذِراعَاً مِنَ التُهَمِ و حَفرِ الحُفَرِ و المُحَارَبَةِ و المُضَايَقَةِ .. فَلَقَد اِتهَمُوهُم بِالسَحَرَةِ و المَجَانينِ و العَرَّافِينَ و الكَذَّابين و المُنَافِقينَ..

و لَكِن لَمْ تَمنَعُهُم عَزائِمُهُم مِن مواجَهَةِ هَذِهِ الحَملَةِ مِنَ الحَربِ الضَروسِ التي شَنَّها الفَاشِلونَ ضِدَهُم ، بِوجُودِكَ كَفَاشِلٍ أو أن تَكونَ في تِعدَادِ الفَاشِلينَ فَأنتَ قَد تَسَببتَ بِأمراضٍ كَثِيرَةٍ في كَوكَبِنا ، فَتأكُلَ طَعَاماً لَيسَ بِطَعَامِكَ و تَعيشُ في

مَنزِلٍ لَيسَ بِمَنزِلِكَ ، و تُخرِجُ لَنا مَعَ فَشَلِكَ أطنَاناً مُطّنَنَةً مِنَ البَكتيريا و الجراثيم ، و نَاهِيكَ عَن بَثِ سُمُومِ أفكَارِكَ و اعتِقادَاتِكَ الدِمَويَةِ التي تَحضُ على القَتلِ و العُنفِ و الإرهَابِ ، هَل سَمِعتَ بِكَوكَبِ اليَابانِ ؟

هُم اليَابَانِيونَ وَحدَهُم مَن فَهِمَ مَا مَعنى أن تَكونَ نَاجِحاً!

لَمْ تَقُل لي كَيف؟

اليَابان .. و المَعنَى الحَقيقِي لِهَذِهِ التَسمِيَةِ : مَشرِقُ الشَمسِ..

كَوكَبٌ يَقَعُ بينَ المُحيطِ الهَادي و بَحرِ اليَابانِ و شَرقِ آسيا الكُوريَة ، يَبْلُغُ عَدَدُ اليابانيينَ 128 مِليونَ نَسمَةٍ ، و تَبلُغُ مَساحَةُ هَذا الكَوكَبِ 373,000 كِيلو مِترٍ مُرَبَعٍ يَدينُونَ بِدينِ الشَنتُو..

و مِن أجلِ التَخفِيفِ مِن حِدَةِ الفَاشِلينَ و تَأثيرِهم على الرَهَطِ النَاجِحِ ، فإنَّ ثَقافَةَ الإنتِحَارِ مُنتَشِرَةٌ, و يُعَدُ الإنتِحارُ لِلفاشِلِ فَضِيلَةٌ لِكي يُرِيحَ و يَستَرِيحَ ، و يُرِيحَ هَذا الكَونَ مِن وجُودِهِ ، فَإنَّ الإحصَائِياتِ تَقولُ : أَنَّ نِسبَةَ الإنتِحارِ في اليابانِ قَدْ وَصَلَت إلى ما يُقَارِبُ 27300 شَخصاً في عَامِ 2013 لِلميلادِ ، أيّ أَنَّ هَذا يَعني أَنَّ كُلَ يَومٍ يَنتَحِرُ ما يُقَارِبُ 75 شَخصاً في المُتَوسِطِ ، و مَا يَجعلُهُم يُقْدِمونَ على هَذا الأمرِ و إنهاءِ حَياتِهِم بِهَذِهِ الطَرِيقَةِ هوَ فَشَلُهُم عَاطِفياً و اِقتِصادياً و اجتمَاعياً..

على هَذَا الكُوكَبِ يُقدِمُ المرىءُ على إنهاءِ حَياتِهِ بِعكسِ الدُوَلِ الفَاشِلَةِ بِكُلِ سِياسَاتِها ، فَفي الوَطَنِ العَرَبِي يَموتُ الطامِحونَ والمُمَيزونَ قَهراً مِنَ الُحُكوماتِ الدِكتَاتُوريَةِ و الشُعُوبِ التي جَعَلَت

حَياتَهُم مُطَبِقَةٌ على أنفاسِهِم وِفقَ عَادَاتٍ و تَقَالِيدٍ و أديانٍ أعادَتْهُم إلى الحَضيضِ ، مَا بِينَ دَولَةِ اليابانِ التي أضحَت رُكَاماً و رِمَالاً لا تَصلِحُ لِلعَيشِ مِن أثَرِ الدَمَارِ الذِي حَدثَ لهَا في الحُروبِ العَالَميَةِ ، شَدَّ الشَعبُ عَزمَهُ لِبناءِ وَطَنِهِ و جَعلِهِ مَنارَةً عِملاقَةً في الحَضَارَةِ و الرُقي..

هَذا الكَوكَبُ لا يَرضَى بِالفَاشِلينَ ، و دَليلُ نَجَاحِهِم بَعد الحَربِ العَالمِيَةِ الثَانيَةِ ، و بَعدَ إصلاحِ مِيجي ، عِندمَا أصبَحَ أولَ قُوةٍ غَيرِ أُوروبِيَةٍ ، و تَوَسُعُهُم بَعدَ الحُروبِ ، حَيثُ قَيَّمَ العُلماءُ الوَضعَ الاِقتِصادّي لِليابانِ بِأنَّهُ فَريدٌ مِن نَوعِهِ ، حَيثُ تساوَت قِيمَةُ الصَادِراتِ معَ صادِراتِ القِوى العُظمى كَالوِلاياتِ المُتَحِدةِ و الاتِحَادِ السُوفِيتِي..

أوطَانٌ يُسجَدُ لَها و لِصانِعِيها و لِلأيادِي الخَفِيَةِ التي تُحيكُ خَلفَ الكَواليس الحَضَارَةَ و التَمدُنَ ..

أذكُرُ إِحدى المُراجِعَاتِ التي ألقَت بِنفسِها أمَامَ القِطَارِ الصَباحِيِّ ، و أنهَت حَياتَها في بِدايَةِ أَحَدِ الأسابِيعِ على مَرمَى مِنَ السِكَكِ الحِديدِيَةِ..

لَقَد أَخرجُوها مُقَطَّعَةَ الأَوصَالِ في يَومٍ مُمطِرٍ ، و انتَشَرَ خَبرُ الإنتِحار في العَاصِمَةِ فِيينا كإنتِشَارِ النَارِ في الهَشِيمِ ، و أضْحَت حَديثَ القَاصِي و الدَانِي ، إِنَّهَا عَازِفَةُ الكَمَنجَةِ الشَابَة المَشهُورة : لَينَا..

عَاشَت لينا مَعَ وَالِدَتِهَا في أَحَدِ الأحياءِ الفَقِيرَةِ في الحَيِّ العَاشِرِ ، و كَانَت تَدْرُسُ المُوسِيقى في جَامِعَةِ فيينا في قِسمِ المُوسِيقى ، لَقَد تأَثَرَت بِسُمعَةِ وَالِدِها الطَيبَةِ ، و أَنَّهُ أَحَدُ عَمَالِقَةِ الكَمَنجَةِ و أَحَدُ المُدرِّسينَ المَرمُوقينَ في المعَاهِدِ المُوسيقيَةِ و أَحَدُ العَازِفينَ القَادَةِ في الكَنَائِسِ القَديمَةِ و الحَفلاتِ الرَاقِيَةِ..

و لَكِنّهُ سَقَطَ مَيتاً إثْرَ نَوبَةٍ قَلبيَةٍ و هُوَ يَعزِفُ في أحَدِ الحَفلاتِ الدِينيَةِ في الكَنيسَةِ العُظمى في العَاصِمَةِ فِيينا..

كَانَ عُمرُ لينَا سِتَةَ عَشَرَ عاماً..

في تِلكَ الآوِنَةِ كَانَ وَضعُ وَالِدَتِها سيءٌ جِدَاً..

بِيعَ البيتُ ، و سُدِّدَتِ فَواتيرُ الجنَازةِ ، و اشتَرَت مَنزِلٍ أصغَرَ لِتَعيشَ مَعَ اِبنَتِها ، و أكمَلَت الأُمُ عَمَلها في بَلديَةِ فِيينا ، فَلَقَد كَانَت مُوظَفَةً ذَاتَ دَخلٍ مُتَوسِطٍ تَستَطيعُ أَنْ تُنفِقَ على دِراسَةِ لينَا..

فَلَقَد كَانَت لينا في قَلبِ أَبيها حُلمٌ لِلوصُولِ إلى النُجُوميَةِ ، و لَمْ تَتَخلى لينا عَن حُلمِ وَالدِها ، أخَذَت لينَا تَرى الإرهَاقَ في وَجهِ أُمِها و التَعَبَ المُتَزايدَ يَوماً بَعدَ يَومٍ ، و الحَالَةُ النفسيَةُ المُتَرَديَةُ التي وَصَلَت إليها الأُمُ بِسَبَبِ فَقدِ زَوجِهَا ، و بَعدَ مُرورِ عِدّةِ أعَوامٍ على هَذِهِ الحَالَةِ ، وَصَلَت لينا

إِلى السنَةِ الثَانيَةِ في جَامِعَةِ فِيينا كَأَوَلِ مُتَفوقَةٍ بِمُعدَّلٍ كَامِلٍ ، و بِأداءٍ لا مَثِيلَ لَهُ في عَزفِ الكَمَنجَةِ..

مَرِضَت الأُمُ مَرضاً شَدِيداً ، و أُدخِلَتِ المَشفى ، فمَا كَانَ التَشخِيصُ الطِبي إِلا وجَعاً في قَلبِ الأُمِ و اِبنَتِهَا..

ـ أخبِرني يا دُكتُور كَيفَ حَالُ وَالِدَتي !! ؟

اِنكَسَرَ الطَبِيبُ أمَامَ الشابَةِ حَزيناً جَزِعاً:

ـ إِنَّ أُمَكِ مُصَابَةٌ بِسرطَانِ الدَّمِ و هي في المَرحَلَةِ الأَخِيرَةِ لِلمَرَضِ ، يُؤسِفُني أن أنقُلَ لَكِ هَذَا الخَبَرَ ، و لَكِنَّها إِرادَةُ الرَّبِ..

سالَتِ الدُموعُ على خَدِّيها..

و وَقَفَت في الحَلقِ غَصَةٌ كَطَعمِ المَرارِ..

شَهَقَت لينا لِهَذِهِ المُصيبَةِ التي حَلَّت بِأُمِها..

كَيفَ سَتُخبرُ لينا أُمَّها مِن بَعدِ أن أَوكَلَ لَها الطبيبُ المَهَمَةَ، إِنَّها مَهَمَةُ إِخبارِها بِأَنَّهَا مُصابَةٌ بِمَرَضِ السَرَطانِ..

يا رَبَّاهُ .. مَا هَذا القَدر الذي نَزَلَ عَلَينا!!..

دَخَلَت لينا إِلى وَالِدَتِها..

على سَريرِ إِحدى الغُرَفِ في المُستَشفى تَفتَرِشُ الأُمُ أَلَمَها ، بِوَجهٍ شَاحِبٍ ، و مسَاماتٍ مُتَعَرِقَةٍ ، و حَرارَةٍ مُرتَفِعَةٍ ، كَشَفَت لينا السِتارَ عَن أُمِّها ، و اقتَرَبَت إِلَيها وجَلَسَت على الكُرسِّي بِجانِبِ سَريرِها ، و أَمسَكَت بِيَدِ أُمِّها و سَالَت دُمُوعُهَا..

استَيقَظَتِ الأُمُ على صَوتِ النَحِيبِ سألَتها:

ـ لينا يا ابنَتي .. مَاذا قَالَ لَكِ الطَبيبُ !؟ .. هَل ظَهَرَت نتائِجُ التَحَالِيلِ.. !!

اِزدادَ بُكَاءُ لينا مِما جَعَلَ الأُم تَستَغرِبُ مِن تَصَرُفِ اِبنَتِها ، نَطَقَت لينا قَائِلَةً:

ـ مِنَ المُؤسِفِ أن أُخبِرَكِ مَا نَقَلَهُ لِيَ الطَبِيبُ يا أُمي ، و لَكِن ، عَليكِ أَنْ تعلَمي بِأَنَكِ مُصَابَةٌ بِمَرَضِ السَرَطانِ.. !!

صَرَخَت الأُمُ لِهَذا الخَبَرِ الذي زَادَ في حِدَةِ تَعَبِها ، و عَانَقَت الأُمُ اِبنَتها بِحرارَةٍ و حُزنٍ ، و تَعَالى النَحِيبُ في الغُرفَةِ ، مِما أَدى لِتَدَهورِ حَالَةِ الأُمِ ، لِتَقَعَ مُغمَى عَلَيها ، أَسرَعَ الأَطِباءُ إِلى غُرفَةِ الأُمِ ، و أخرجوا لينا خَارِجاً..

مَاذا سَتَفعَلُ لينا لَو فَقدَت أُمَّها!!

إِنَّها كَنَرجِسَةٍ وَحِيدَةٍ في عالَمِ الأشواكِ..

بَدأَت تُرَتِبُ حَياتَها لِتُسَاعِدَ أُمَّها مالياً و نَفسياً..

حَمَلَت الكَمَنجَةِ إلى أحَدِ شَوارعِ فيينا المَعرُوفِ بِشَارِعِ مَارِيا هِلفر و بَدَأت تَعزِفُ عِملاقَةَ الصَوتِ و المَسمَعِ أمامَ المارَةِ لِسَدادِ أقساطِ المُستَشفى و الدَواءِ البَاهِظِ الثَمَنِ..

بينَ الجَامِعَةِ و عَمَلِهَا في الطُرُقَاتِ و جُلُوسِها بِجَانِبِ أُمِّها ، كَانَت تَرحَلُ مسَاءً كالمُغمَى عَلِيهِ مِنَ التَعَبِ ، فَقَد أهداها القَدَرُ حَياةً مُؤلِمَةً ، و عَلَيها مُواجَهَةُ الحَياة بِكُلِ قِواها و إلا أضْحَت ضَحيَةً في زَمَنٍ لَيسَ بِزمَنِها..

كُلُ يَومٍ بَعدَ الإنتِهاءِ مِنَ الجَامِعَةِ ، تَفتَرِشُ الأَرصِفَةَ امامَ المَارَةِ ، و تَعزِفُ بِكُلِ ألَمِها و حُزنِها ، ليَجتَمِعَ حَولَها السُياحُ و المُرتادونَ لِلعَاصِمَةِ القَديمَةِ..

تَحتَ المَطَرِ ، و أمَامَ الشَمسِ ، تَعزِفُ لِلمَوتِ أُنشُودَةَ النَجَاةِ ، فَهَل تَنجو الأُمُ مِن حَتفِها.. !!

اِعزف يا وَتَرَ الكَمنجاتِ..

لِلمَوتِ المُغَطَّسِ بِالنَبيذِ و الألَمِ..

اِعزف مَقامَاتِكَ الخَجولَةَ لِلطُرُقاتِ و لِلأمَلِ..

كَانَ المَارَةُ يَجتَمِعونَ حَولَ حُزنِها ، يَستَمِعونَ لآنينِ آلَتِها ، يُصَّفِقونَ لِدَمَارِها ، يُلقُونَ بِنُقودِهِم المَعدَنيَةِ لِتَعاسَتِها..

فَقد فَقَدَت اِبتِسَامَتَها ، و ذَبُلَت رُوحُها ، و جَفَّت السَعادَةُ في قَلبِها..

و عِندما تَنتَهي مِن طُقوسِ الشَوارِعِ و الأَرصِفَةِ كَانَت تَعودُ مَسَاءاً لِتَعزِفَ لِلألَمِ الذي يَفتَرِشُ أَسِرةَ المَوتِ..

فَبَعدَ أَنْ تَطْمَئِنُ لينا على أُمِّها..

كَانَت تُجَرِدُ الكَمنجَةَ مِن بِيتِها و تُسِنُ لِلوَتَرِ أَنفاسَهُ الجَافَةَ ، و تَعزِفُ ،

و تَعزِفُ ،

و تَعزِفُ ،

و تَعزِفُ ، حَتى تَخلُد الأرواحُ المُتألِمَةُ إلى الراحَةِ ، و تَخشَعَ الأَعصابُ المُتَوجِعَةُ ، و تَخمُدَ نِيرانُ الأَشباحِ المُتَسَولِةِ..

اعزفي يا آنِسَةَ الضَبابِ الخَرِيفِ أَلحانَ الأَرواحِ الصَاعِدَةِ ، لِيكتَمِلَ النُورُ ، لِتَخرُجَ الشَمسُ ، لِتَسقُطَ النُجُومُ..

مُبتَسِمَةً الأُمُ لِلحنِ المسافاتِ بينَها و بينَ المَوتِ..

تَنظُرُ إلى مَلائِكَةِ الرَّبِ لتُخَلِصَها مِن هَذِهِ الدُنيا ، لَعلَّ الرَّبَ في سَمَائِهِ أرحَمُ بِها .. و شيئاً فَشيئاً ، و سحباً فَسحباً ، و نَبضاً فَنبضاً ، و خَفقاً فَخفقاً..

اِستَراحَتِ الأُمُ مِن عَناءِ المَرضِ بِخُروجِ رُوحِها على آلَةِ الكَمَنجَةِ ، عَزَفَت لينا مَقطوعَةَ الوَدَاعِ ، و عَزفَ المُوتُ مَقطوعةَ الفناءِ ، و خَمَدَت النَبضاتُ و الخَفقاتُ ، و هَدَئَتِ الأورِدَةُ و الشَرايينُ ، و طَوى التُرابُ أحزانَهُ و آلامَهُ..

لَمْ تُصَدِق لينا ما يُحمَلُ في تَابوتِ الموتِ!!.

إَنَّها الهَوى و الروح ، في آخِرِ مَشهَدٍ لَها قَبلَ أن تَرقُدَ في التُرابِ .. مُنذُ ذَلِكَ الحِينِ أتَتني لينا إلى عِيادَتي لِتَتَخَلَصَ مِنَ الكَمِّ الهَائِلِ مِنَ الحُزنِ .. و لَكن تَخَلَصَت مِن نَفسِها لأِنَ الحُزنَ كَانَ أكبَرُ بِكَثِيرٍ مِنْ فُقدانِ الأَحِبَةِ ..

التَحمُل..

قُدرةُ الفَردِ على الإستِمرَارِ في أداءٍ مُعيَنٍ لِلوصُولِ لأمرٍ مُعيَنٍ..

و حَتى نُجَمِّلَ الوَجهَ الحَقيقيَّ لِلضَعفِ ، خلَقنا مَفهُوماً جَديداً اِسمُهُ التَحَمُلَ ، أو بِمعَنى آخر ما يُسمى الصَبرَ..

و التَحمُلُ في الحَقيقَةِ نَوعٌ مِن أنوَاعِ الإتزِانِ لِنُكمِلَ السَيرَ تَحتَ ضُغُوطَاتِ الحَياةِ ، و لِنُسكِتَ شَرهَ ضَعفِنا ، فَأيُ فَردٍ على هَذَا الكَوكَبِ لَهُ طَاقَةٌ مُعَينَةٌ لِلتَحَمُلِ ، فَإذا طَفَحَ الكَيلُ و وَصَلَ التَحَمُلُ إلى الحُلقُومِ ، فَلكَ في السيناريو القَادِمِ تَمُردٌ لا يُضَاهيهِ جُنُونٌ ، فَستَرى العَجَبَ العُجَابَ..

رُبما سَيَصرَخُ ، أو سَيُدَمِرُ ، أو سَيَحرِقُ ، أو يُؤذِي كَأن يَقتُلَ أو يَضرِبَ أو يُحَطِمَ ، و إن كَانَ

التَحَمُلُ قَد نَفِذَ مِن جَوفِهِ فإَنَّ العَمى سَيأخُذُ مِنهُ شِبراً عَميقاً..

أنتَ تَتَحمَلُ الآَخَرينَ بِكُلِ شَيءٍ ، إلا أمراً وَاحداً كَأن يَمُسَ أحدُهُم كَرامَتَكَ ، أو يُهينَكَ بِلا سَبَبٍ ، و في المَشَاهِد الوَطنيَةِ التي تُشَاهِدُها عَبرَ وَسَائِلِ الإِعلامِ خَير مُخبِرٍ و نَذيرٍ..

أُنظُر إلى مَا يَحصُلُ في هَذَا العَالِمِ ، مِن حُروبٍ و تَقتيلٍ و تَشتيتٍ و ظُلماتٍ ما بَعدَها ظُلمَاتٌ..

اِطرَح على نَفسِكَ هَذا السُؤالَ..

مَا الذِي يَجري على هَذا الكُوكَب بِحَقِ السَماءِ..

الذي يَجري هُوَ الصِراعُ على المَفقُودِ الذي لا يَستَطيعُ أَحَدٌ أَنْ يَمتَلِكَهُ ، ما الذي تَستَطيعُ اِمتِلاكَهُ مَثَلاً.. !!

الفِكرُ ، الحُريَةُ ، الكَرامَـةُ ، الحَياةُ ، السَلامُ ، الأمَان!!

هَذا ما تَطمَحُ إلَيهِ ؟..

إنَّ طُمُوحَاتِكَ هَذِهِ أَشبَهُ بِأحَلامٍ سَتعِيشُها و تَعيشُ بِكَ ، أنتَ كَحامِلٍ لِهَذِهِ الأفكَارِ النَقِيَةِ ، سَتبقى تُقاتِلُ و تُنافِحُ و تُدَافِعُ عَنها حَتى المَوتِ ، هَل تَعي ما أَقولُهُ لَكَ ، القُلوبُ النَقيَةُ وَحدَها مَنْ تَتَلوى و تُؤذي و في أغلَبِ الأَحيانِ تَكونُ ضَحيَةً لِمطَامِعِ الأَشرارِ..

أنتَ أَيُّها الطَاهِرُ ، يا نَقيَّ النَبضِ و القَلبِ ، سَتُدَاسُ بِأحذيَةِ الأفكارِ النَتِنَةِ لِأصحابِ المَطَامِعِ الشَخصيَةِ و المِليشياتِ الوَهميَةِ ، هُمْ يَملِكُونَ ما لا تَملِكُهُ ، في خَزِينَتِهم الأموالُ و السِلاحُ و الثَرواتُ ، و في قَلبِكَ السَلامُ و المَحَبَةُ و الأمانُ ، سِلاحُهُم بارودٌ و نَارٌ ، و درِعُكَ كَلِمَةٌ طَيبَةٌ و اِبتِسامَةٌ أنيقَةٌ..

كَمْ أَنتَ قَويٌّ أمَامَ هَذا الظَلامِ الهَائِلِ ، فَلا يُوجَدُ ضَحيَةٌ بِلا جَاني ، و لا يُوجَدُ جَاني مِن غَيرِ كُرهٍ و حِقدٍ ، فَضَحايا السَلامِ صُورُهُم في قلوبِ كُلِ البَشرِ و تَمَاثيلُهُم في أَغلَبِ العَواصِمِ العَالَميَةِ..

فَمَاذا تَنفَعُ الصُورُ و التَمَاثِيلُ التي تَبتَلِعُ الأعيُنَ في كُلِ العَالَمِ .. و فِكرُهُم مُحَاربٌ و مُضطَهَدٌ!!

لَن تَنفَعَ شَيئاً البَتَةَ ، لِأنَ الشَرَّ سَنَّ أنيابَهُ و سَلَّ سُيوفَ كُرهِهِ ، و جَمَعَ جَميعَ عتَادِهِ ضِدَّ المَحَبَةِ و لَكَ عينَةٌ حَسَنَةٌ و مُبكيَةٌ في نَفسِ الوَقتِ مَعَ أَحَدِ المُراجِعاتِ اليزيدياتِ القَادِمَةِ مِن أَحَدِ البُلدَانِ العَربِيَةَ..

جُنِيت شَابَةٌ مِن اِحدى الطَوائِفِ اليَزيديَةِ من دَولَةِ العِراقِ ، أَتَتني قَبلَ عِدَةِ أشهُرٍ إلى عِيادَتي..

كَم أَنتِ شَهِيَةُ الجَمَالِ يا جُنِيت..

دَخَلَت إِلى عِيادَتي وِفقَ المَوعِدِ المُحدَدِ لَها إِلى غُرفَةِ التَشخيصِ ، كُنتُ أُرِيدُ أَنْ أَستَمِعَ لِما تَضمُرُهُ مِن مَآسِي قَد مَرَّت بِها..

ـ عُمتَ مَساءاً دُكتُور.. !!

صُعِقتُ لِجمالِها الشَاحِبِ ، غُبارٌ على قَارِعَةِ الصَمتِ يَتَرَصَدُ كَلِماتِها، و بَريقُ ضَبابٍ لا يُبَشِرُ بِذوَبَانِها، كَشمعَةٍ تَذوبُ تَذوبُ مِن نَارٍ مُستَعِرَةً في جَوفِها ، مِن أَيَةِ مَملَكَةٍ أَنتِ يا أُنثَى المَسَافَاتِ الزَائِلَةِ..

جَدَائِلُها..

آهٍ مِن دُجنَةِ جَدَائِلِها..

و شِفاهُها كَخُبزِ القَمْحِ الرِيفي..

و حُمرَةِ وَجهِها كَبِدَاياتِ تَفَتُحِ أَجنِحَةِ الفَراشَاتِ..

كِدتُ أَقُولُ لَهَا أَنتِ المَساءُ و نُجُومُهُ اللَّماعَةُ ، و أَنا العَلِيلُ المُستَلقي على بَرِيقِ مَسَائِكِ..

أنجِدِيني آنِسَتي مِن قَامَةِ النُورِ بَينَ ثَناياكِ..

أَطفِئي نَشوَةَ خُطواتِكِ على رَصيفِ نَظَراتي..

أَقيمي قُدَّاسَ قُدومِكِ إِلى صَوامِعِ الشِفاءِ بَلْ إِلى أَجراسِ الشِفاهِ..

قُلتُ كَالذِي خَرَّ مِن شُرفَةِ الكَمالِ المُطَّرَزِ:

ـ صَباحُ الخَيرِ آنِسة جُنِيت .. أَلَيسَ كَذلِك أنتِ جُنِيت !؟..

قَالَت عَاصِرَةُ الأَرواحِ:

ـ نَعَم ، جُنِيت جان ، مِنَ العِراقِ ، و أَنا لَاجِئَةٌ هُنا..

كِدْتُ أقولُ لَها .. أَتقبَلي أَرضي ، أَتَقبَلي نَبضي ، أَتَقبَلي خيامي و أَحَلامي و أَوهامي يا آنِسَةَ السَحابِ!!

قُلتُ:

ـ أهلاً و سَهَلاً بِكِ آنِسَتي..

ـ هَلْ تَشرَبينَ القَهوَةَ مَعي !؟

قَالَت سَحَابَةُ السلامِ:

ـ بِكُلِ سُرورٍ..

اِبْتَسَمَت ، مِن بَعدِ أَنْ خَلَعَ مَبسَمُها حُزناً بَهياً ، تَخَيَل بِأنَّ حُزنَها زَادَها جَمَالاً ، فَكِيفَ بِسُرُورِها! يا لَها مِن فِلقَةِ قَمَرٍ طَرِيَةٍ ، يا لَها مِن شَرطَةِ عَسَلٍ شَهيَةٍ..

يَا لِحَظي بِرؤيَةِ هَذِهِ الأَبجَدِّيَةِ المَكتُوبَةِ بِريشَةِ شَاعِرٍ عَاشِقٍ..

قُدِّمَتِ القَهوَةُ لَها ، اِحتَسَتْ قَهوَتَها و احتَسى شَغَفي مَعَها اِنتِمائي لَها..

كَيمَامَةٍ بَيضاءَ مُبَلَلَةٌ بِالسَكِينَةِ ، تُرَفرِفُ خَلفَ قِبابِ المُهاجِرينَ إِلى عَالَمِ الغَيبِ بَلْ إِلى مَواطِنِ العِشقِ ، طِيري بِكُلِ تَبَرُجِكِ و احمِلي لَنا مَعَ

السَماءِ رَقَصاتِ سُحُبِكِ ، و أمطِرِينا بِالحُبِّ و الحَنانِ..

أنتِ الشَجَنُ ، و نَحنُ العَازِفونَ لِفَتيلِ الدَورانِ المُتَمايِلِ ، و ما إِن أَتَّمَت فُنجانَ قَهوتِهَا ، حَتى أَطرَقَ الصَمتُ بُؤساً لِاضطِرابِها..

مَن تَكونِي أَنتِ ، و مَا الذِي تَحمِلِينَهُ مِن حُزنٍ .. سَأعرِفُ لا مَحَالَة..

قَالت:

ـ أنَا مِنَ العِراقِ يا دُكتُور ، فَقَدتُ جَميعَ أفرادِ عَائِلَتي في أَحَدِ اِجتِياحاتِ الإِرهابيينَ ، حَرَقوا المُمُتَلَكَاتِ ، و هَدَموا المَنَازِلَ ، و قَتَلوا الرِجَالَ ، و سَاقوا النِسَاءَ و الأَطفالَ إِلى أَمَاكِنَ مَجهُولَةٍ ، حَتّى نَحنُ أَهلُ ذَاكَ المَوطِنِ لَمْ نَعرِفهُ ، لَقَد كَانَ فيهم مِنَ القَسوَةِ ما لَمْ أَراهُ عِندَ أَحَدٍ قَطْ ، تَخَيل خَمسٌ و عِشرونَ يَومَاً و نَحنُ نَمشي كَقُطعَانِ

النِعاجِ تَحتَ حَرِ النَهارِ و بَردِ اللَيلِ ، حَتى وَصلنا إِلى قَرِيَةٍ نَائيَةٍ ، و لو رَأيتَهُم لَقُلتَ بِأَنَّ هَؤلاءِ لَيسوا مِن بَني البَشَرِ، النِساءُ في ذَاكَ المَكَانِ لا تَرَى مِنهُنَّ شَعرَةً ، مَكسواتٍ بِالسَوادِ مِن رؤوسِهِنَّ إِلى مَخامِصِ أقدامِهِنَّ ، و الرِجَالُ مُسّلَحُونَ بِشُعورٍ كَثَّةٍ ووجُوهٍ قَبيحَةٍ..

الشُعورُ الذي اِنتابَني ، أَنَّ الزَمانَ قَدْ عَادَ إِلى الوَراءِ قَبلَ أَلفَيّ سَنَةٍ ، و كَانَت أُمي المُسِنَةُ و أَخَواتي مَعي ، و كَانَ عُمرِي آنَ ذَاكَ سِتَ عَشَرَةَ سَنَةٍ..

لَقد وَضَعونَا في وَسَطِ سَاحَةٍ تَابِعَةٍ لِهَذِهِ القَريَةِ ، و اجتَمَعَ هَؤلاءِ المُتَخَلِّفينَ بِأسلِحَتِهم و رِجالِهم و نِسائِهم ، ووَقَفَ أَحَدُهُم يُنَادِي بِالقَومِ قائِلاً:

بازار السَبايا .. بازار السَبايا ..

كُنتُ استَمِعُ لِجُنِيت كَأَنَني أَنا الذي سَاقوهُ و عَذَّبوهُ و نَادوا بِهِ لِلبَيعِ .. رَاحَت تَسرُدُ هَذِهِ الفَاجِعَةَ .. و رُحتُ أَرتَجِفُ غَضَباً:

ـ يا أَيُّها الطَبِيبُ ، لَمْ أَكُن أَعتَقِدُ بِأَنَنا سَنُباعُ ، بِهَذِهِ الطَرِيقَةِ الحَقِيرَةِ ، لَقَدْ خِفتُ على أُمي المِسكينَةِ ، لَقَدْ كَانَت تَحمِلُ عِدَّةَ أمراضٍ كَالسُكَّري و آلامِ المَفاصِلِ و هَلُمَ جَراً..

فَلَقَد بيعَت أُختي الكُبرى لِرَجُلٍ وجَهُهُ يُشبِهُ وَجهَ الشَياطينِ ، لَمْ تَكُن لُغَتُهُ عَرَبِيَةً و لَمْ أَعرِف بِما يَتَحَدَّث ، أَمسَكَ بِمِعصَمِ أُختِي بِعُنفٍ ، و جَرَّها كَالذي يُريدُ أَن يَذبَحَ بَقَرَةً ، و قامَت القيامَةُ بينَ النِساءِ ، و تَعالى النَحيبُ و البُكَاءُ و العَوِيلُ ، و أُغمي على وَالِدَتي..

لَو كُنتَ رأيتَ يا دُكتُور كَيفَ سَحبَها ذَلِكَ الخِنزِيرُ!!

كَانَت أُختي تَصرَخُ بِشِدَةٍ ، و تَقولُ:

أَنقِـذوني .. أُمي أَرجُوكِ أَنقِذيني..

حَاولَت النِسَاءُ الإمساكَ بِها ، فَكَانَ جَزائُهُنَّ بِالرَكْلِ و الضَربِ بِالسياطِ ، فَأنتَ أَمَامَ ظُلمِهم و أَسلِحَتِهم لا يُمكِنكَ أَن تَفعَلَ شَيئاً ، كَمٌ هَائِلٌ مِنَ الرِجَالِ الغِلاظِ الشِدَادِ الذِينَ اِنتُزِعَتِ الرَحمَةُ مِن قُلوبِهم..

تُريدُ الفِرارَ ، هَذا شَيءٌ لا يُمكِنُ ، فَإن حَاولتَ أن تَهرُبَ فَالموتُ يَنتَظِرُكَ على الطَرفِ الآخَرِ ، كَان مَنظَرُنَا مَبعَثاً لِلأكلِ ، و نَظراتُ الرِجَالِ الشَرِهَةِ تَكَادُ لا تَمِلُ و لا تَكِلُ..

إذاً نَحنُ سَبايا. !!

بَكَت جُنِيت حَتى تَخَضَبَ خَدَّيها بِالدُموعِ..

إِنَّها دُموعُ الشِتاءِ القَادِمِ مِنَ الشَرقِ ، يَا لَها مِن مَوجَةِ رُعبٍ ! ، رُحتُ أُقَدِمُ لَها المِندِيلَ تِلوَ الأَخَرِ ، و لَكِّنَ غَصَةَ الوَجَعِ تأبى إلاَّ الصَمتَ..

إَنَّهُ شَلَّالٌ مِنَ الأَلَمِ المَكسوِ بِالظُلمِ..

مَا أسوءَ أَن تَنبُتَ زَهرَةٌ وَسَطَ حَقلٍ مِنَ الشَوكِ..!

جَفَفَت جُنِيت دُموعَها و لَكِنَّ الأَجفانَ أَخَذَت على سَراديبِها عَهداً على أَن لا تَتَوقَفَ..

قُلتُ لَها بِحُزنٍ:

ـ إن كَانَ الأَمرُ يُزعِجُكِ ، فَسَنُكمِلُ لاحِقاً..

شَهَقَت مَلِكَةُ الشَرقِ الجَرِيحَةِ و قَالَت:

ـ لا يا دُكتُور ، لَقَد أَتَيتُ حَتى أُخمِدَ هَذِهِ النِيرانَ التي تَشتَعِلُ في أحشَائي..

ـ حَسناً آَنِسَتي .. إن كَانَ هَذا الشَيءُ يُرِيحُكِ بِإِمكَانِكِ أن تُكمِلي الحَدِيثَ..

غَصَةٌ في القَلبِ تَكَادُ أَنْ تَنفَجِرَ.. ما هَذا يا رَبَّاهُ!!

ـ يا دُكتُور .. ما إن سُحِبَت أُختي ، حَتى قَامَت صَديقَتُها لِتَلحقَ بِها و لَكن كَانَ بِتَمَرُدِ صَدِيقَةِ أُختِي أَن رَموها بِالرَصَاصِ الحَيِّ أَمَامَ أعيُنِنا ، لَعَّلَها كَانَت رِسالَةً لَنا تَقولُ:

مَن أرادَت أن تَتَمرَدَ فَمَصيرُها كَمصَيرِ هَذِهِ الفَتَاةِ

تَباً و ألفُ تَباً .. مَن يَكُن هَؤلاءِ.. !!

و ما إن بيعَت أُختي حتى بَدأَ العَدُ يَنخَفِضُ مِن مَجموعَتِنا ، بيعت الثَانيَةُ و الثَالِثَةُ و الرابِعَةُ ، حَتى وَصلَ الدُورُ على أُختي الثَانيَةِ .. ومِن سُوءِ حَظِّها بِأنَّ مَصَيرها كَمَصيرِ أُختي الكُبرى .. لَقَد سيقَت لِرَجُلٍ يُشبِهُ كُهوفَ السَحَرَةِ ، قَدْ جُرِّدَت مَلامِحُهُ مِنَ الرَحمَةِ مُرتَدياً زِيَّهُ القَذِرَ الذِي يُشبِهُ زِيَّ الجَزَارين ، ومَا كَانَ مِن أُختي

إلا و بَدَأَت بِالصُراخِ و العَويلِ ، و اختَفَت مِن بينِ كُثبانِ الرؤوسِ فَبقيتُ أنا و أُمِي ، رُحتُ أَتَوَسَلُ أَن يُبقيني المُنَادِي مَعَ أُمي:

ـ أرجُوكَ إنَّها اَمرَأَةٌ كَبيرَةٌ و مُسِنَةٌ ، و لا تَقوى على خِدمَةِ نَفسِها..

صَرَخَ في وَجهي و لَطَمَني على وَجهي قَائِلاً بِأعلَى صَوتِهِ:

ـ أُصمُتي يا كَافِرَة..

بَكيتُ قَهرَاً و احتَضَنتُ والِدَتي المِسكينَةِ ، و لَكِّنَ الأَقدارَ والمَوتَ كانوا على مَوعِدٍ مَع هَؤلاءِ المُجرِمين ، سَحبَ وَالِدَتي و ألقى بِها في حُفرَةٍ بِلا شَفقَةٍ و لارَحمَةٍ ، و أنا أَبكي و أُحاوِلُ إنقاذَها و لَكِن حَالَ بَيني و بِينَها سِياطَهُم و لَطْمَهُم لي حَتى أدموني و شَجوا رَأسِي ، كَمْ اِبتَلَعتُ مِن أَلَمٍ آن ذَاك..

لَقد لَقَموا أَسلِحَتَهُم و رَموا والِدَتي بِالرَصَاصِ الحَيِّ ، رَصاصٍ كَرَشقِ المَطَرِ يَصُبُ على جَسَدِها مِن كَافَةِ الاتِجاهاتِ ، و بَصقٌ و شَتمٌ مِن كُلِ حَدبٍ و صَوب ، مَا إن فَارَقَت رُوحَها الحَياةَ حَتّى صَرخَ قَاتِلُهَا قَائِلاً:

ـ إلى الجَحيمِ أَيَتُها العَاهِرَةُ..

أُغمِيَ عليَّ وَقتَها مِنَ المَشهَدِ الذي رأتهُ عَيناي ، و فَقَدتُ السَيطَرَةَ على نَفسي ، و أَظلَمَت بِيَ الدُنيا مِن كُلِ مَكَانٍ ، و لَكَأَنَني أنا مَن قُتِلتُ..

استَيقَظتُ..

و يا لَيتَني لَمْ استَيقَظ..

لَقَد رَأيتُ فَوقَ رأسي امرأتانِ ، تَمسَحانِ الجِراحَ عن وَجهي ، يا رَبَّاهُ ما الذي يَحدُث!!

لَقَد بُدِّلَت ثِيابي ، و جُفِفَت الدِماءُ ، و هُنَاك مَن قَامَ بِخِدمَتي ، و لَكِن مَن يَكُنَّ هَؤلاءِ النِسوَةُ!!

ـ الحمد للهِ على سَلامَتَكِ..

نَطَقَتِ النِسوَةُ أَخِيراً..

ـ مَا اسمُكِ يا حُلوة ، و مِن أينَ أَنتي !؟..

إنَ طَرِيقَةَ الكَلامِ و اللهجَةِ تَدُلُ بِأَنَهُنَّ مِن بِلادِ الخَلِيجِ العَرَبِي ، تَباً لهُنَّ و لِلخَلِيجِ العَرَبِي..

ـ أَنَا جُنِيت مِن كُردِستَان العِراق .. أينَ أنَا !!

ضَحِكَتِ النِسوَةُ من سُؤالي..

ـ أنتِ في أمانٍ لا تَقلَقي يا حُلوة..

في وجُوهِهِنَ مَكرُ الغِربانِ ، و حِقدٌ دَفينٌ ، و قَسوَةٌ خَبيثَةٌ ، و غِلظَةٌ مُحَـنَـكَةٍ ، أَيُعَقَلُ مَا يَجري هُنا.. !!

ـ عَلَيكِ أَن تَأكُلِي يا جُنِيت ، و مُنذُ اليَومِ لَمْ يَعُد اِسمُكِ جُنِيت ، لِأَنَ أبا البَراءِ أطَلَقَ عَلِيكِ اسماً غَيرَ هَذا الاِسمِ الذِي يتَسمَى بِهِ الكُفارُ ، اِسمُكِ اليَومَ هُوَ حَفصَة..

أنَا صُعِقتُ عِندما سَمِعتُ بِالتَغيُراتِ الجَذريَةِ لإسمي ، و لِما يُغَيرُ اِسمي،و مَن هُو أَبو البَراءِ هذا.. مَن يَكون !! ؟

ـ يا حفصة .. يا حفصة .. يا حفصة .. إِنَّهُ وَلِيُ أَمرِكِ ، و أَنتِ أَمَتَهُ ، و نَحنُ زَوجَاتُهُ ، أمُّ البَراءِ و أُمُّ الحَارِثِ..

حَدَّثَتني نَفسي بِأن أَبصُقَ على وجُوهِهِنَّ و لكَنَ مَشهَدَ وَالِدَتي لَمْ يَذهَب مِن خَيالِي ، قُلتُ:

ـ مَاذا يَعني أَمَة !!؟

اِستَغرَبنَ لِسُؤالي ، و رُحنَ يَضْحكنَ ضَحِكَاً مَا بَعدَهُ ضَحِك ، قَالت إحداهُنَّ:

ـ يَعني أَنَّكِ مُلكَاً لَهُ ، و بِعِبارَةٍ اُخرى أَنتِ عَبدَةٌ عِندَهُ ، يَحِقُ لَهُ أَن يَفعَلَ بِكِ مَا يُرِيدُ ، إِنَّهُ حُكمُ الإِسلامِ يا أَيَتُها الكَافِرَةُ..

لَقَد رَمَتني بِالكُفرِ، و هَذا يَعني أَنَّها غاضِبَةٌ و إِن زَادَت حِدَةُ الغَضَبِ ، فَسَوفَ يَكونُ مَصيري كَمَصِيرِ مَن قَتَلُوهُنَّ مِن قَبلي..

ـ اِسمَعي يا حفصة .. عَلِيكِ هُنا بِالسَمعِ و الطاعَةِ ، و عَدَمِ رَفضِ أيِّ أَمرٍ يُوجَّهُ إِلَيكِ .. أَسَمِعتي !!

جُنِيت أو حفصة..

اِسمٌ لِضَحيَةِ مَصَالِحَ شَخصِيَةٍ..

و لِأنَ الآلِهَةَ مَفهومٌ عَامٌ ، و يَحِقُ لِمَن هَبَّ و دَبَّ أن يَفهَمَ الآلِهَة كَمَا يَشاءُ ، فَعَلِيكَ الصَمتُ في حَضرَةِ أربابِ القُلوبِ المُلوَثَةِ بِالزيفِ ، كُلٌ فَهِم اللهُ كَمَا يُرِيدُ هُوَ .. لا كَمَا يُرِيدُ الله..

إنَّ رَبّاً أَمَرَ بِالقَتلِ و الذَبحِ و التَنكِيلِ لا يُستَحَقُ أَن يُعبَدَ ، و لا أعتَقِدُ بِأنَّ ربَّ السَلامِ الذي خَلَقَ هَذِهِ البَسِيطَةَ و صَوَّرها و نَفَثَ فِيها الأَمان أَن يَكونَ شَرِيكاً في القَتلِ و الدِمَاءِ ، إن كَانَ الربَّ يَأمُرُ بِهذا الخَرابِ و الفَسادِ فَدَّعني أطرَحُ على الربِّ سُؤلاً:

مَاذا استَفَدتَ جَلالَةُ الرَبِّ مِن هَذِهِ الأوامِرِ!!

يَقُولُ لَكَ البَعضُ الحِكمَةُ مِنَ القِتَالِ بِاسمِ الآَلِهَةِ هي إِعلاءُ كَلِمَةِ الرَبِّ .. مَا أغبى هَذِهِ الحِكمة!..

و هَلِ الآَلِهَةُ بِحاجَةً إِلى مَن ينصُرُها و يُعلي شأنَها!!

كُلُ هَذا الخَرابِ لإِعلاءِ كَلِمَةٍ تَصُبُ في رَصيدِ الآَلِهَةِ!!

مَاذا استَفادَت مِن هَذا المَشهَدِ الدَمَوي يا تُرى ، و إِلى أَينَ تُريدُ أَنْ تَصِلَ بِبَني البَشَرِ!!

دَائِماً كُنتُ أَقولُ في نَفسي.

آَلِهَةٌ تَطلُبُ لِنصرَتِها عَبيدَها و أتباعها ، لا تُستَحَقُ أَن تُعبَدَ ، و لَكِن لَمْ تَقُل لي كَيفَ و لِماذا؟؟..

أيَةُ آَلهةٍ تَدَعي الأُلوهيَةَ ، تُحَارِبُ و تَضطَهِدُ ، و لا تُدَافِعُ عَن عَظَمَتِها ، و تَستَنْجِدُ بِخدَمِها و حَشَمِها آَلِهَةٌ ضَعيفَةٌ و هَزِيلَةٌ مَكانُها أن يُرمَى بِها في القُمَامَةِ..

إِنَّ نظرَةَ الناسِ الإِيمانيَةِ لِلآَلِهَةِ على شَطرِينِ..

الشَطرُ الأَوَلُ مُستفيدٌ ، و الشَطرُ الثاني مُستَفادٌ لَهُ ، فَالشَطرُ الأَوَلُ لَيسَ مِن مَصلَحَتِهِ زوالُ العُّبادِ و النُّسَاكِ مِن حَولِ الآَلِهَةِ لِأَنَهُم يَعلمَونَ عِلمَ اليَقينِ بِأَنَ زَوالَ الآلِهَةِ سَيَقلِبُ الطَاوِلَةَ على رؤوسِهم ، سَتَزولُ مَصَالِحُهُم و تَندَثِرُ ، فَهُم مَن يَبيعُ السِلاحَ و يُصَدِرُهُ و يُتَاجِرُ بِالآلِهَةِ و يُثيرُ الفِتَنَ هُنَا و هُنَاك ، لَيسَ حُباً بِالفِتَنِ بَلْ رَغبَةً بِإِفراغِ سِلعَتِهم..

فَهُم يَرونَ الآَلِهَةَ مَصدرُ رِزقٍ ، و يَجِبُ عَلَيهم إِعدادُ العُدَّةِ و العَتَادِ لِتِجارَتِهم و مَصالِحِهم و لكَ في حُكَّامِ المَملكَةِ العَرَبِيَةِ السَعودِيَةِ خَيرُ مِثَالٍ و إِسوَةٍ في آَنٍ وَاحِدٍ..

و الشَطرُ الثاني ، هُو كُومبارسٌ لِمَشهَدِ القُلوبِ الُمنـكَسِرَةِ المُحَطَمَةِ أَمَامَ أَعتَابِ الآَلِهَةِ ، و أيُّ شيءٍ يَفعَلُهُ هَؤلاءِ مِن أحداثٍ أو مُستَجِداتٍ

يَصبُ في مَصلَحَةِ لُصُوصِ اللهِ ، فَإِنَّهُ لا مَحالَ يُعَدُ حدثاً مِنَ الفِطرَةِ..

كَمَا أَنَ الآلهَةَ سُيسَت ِلمصلَحَةِ الفِطرَةِ حُصِرَت و صُنِفَت ، إِنَ هَذا الشَطرَ مِنَ البَشَرِ كالرُعاعِ ، الاِعتِقادُ بِالنِسبَةِ لهُم عِبارَةٌ عَن أحلامٍ و عَواطِفَ ، مُجبَرونَ على الخُضوعِ لِلآلهَةِ ، هُمْ يَعبُدونَها و يَتوَسَلونَ لَها و يلجَأونَ إِلَيها في كُلِ مُستَجدِاتِ حياتِهم ، و لَكِن إِن سأَلتَهم عَنِ الآلَهَةِ فَبِحَقِ السَماءِ أَنَهُم لا يَعرِفونَها ، و إِن قُلتُ لَهُم ِلما لا تَتَعَرَفُ على الأَلِهَةِ ؟

سَيَقولُ لَكَ : فَسألوا أَهَلَ الذِكرِ إِن كُنتُم لا تَعلَمون..

الله .. بِلُغةِ السَماءِ:

هَو طَريقٌ وَاحِدٌ ، و إِلَهٌ وَاحِدٌ ، صَنَعَ هَذا الكُونَ بِالحُبِ و السَلامِ ، و مَن قَالَ لَكَ غَيرَ هَذا القَولِ ،

فَضَع قَولَهُ في أَنفِهِ ، و مِنَ المُؤسِفِ بِأَنَّ بَني البَشَرِ فَهِموا الله كُلٌ على حَسَبِ جَيبِهِ و بَطنِهِ و مَصلَحَتِهِ ، فَلَيسَ مِنَ المَنطِقي أَن تَفرِضَ عَليَّ عَقيدَتَكَ بَينما أَنَّ الله مَعروفٌ و مَوجودٌ ، فَالرَبُ لَيسَ بِحاجَةٍ لِلكُتُبِ و لا لِلرُسِلِ و لا لِلأَنبياءِ ، و لا لِدورِ العِبادَةِ .. إِنَّهُ بِحاجَةٍ لِأَن نُحِبَ بَعضُنا البَعض و نُقَدِّمُ يَدَ العَونِ و نَنشُرُ الخَيرَ و نُخمِدُ الفِتَنَ بِلُغَةِ الحُبِ و السَلامِ..

إِنَ الذي أَوصَلَ جُنِيت إِلى هَذا الجَحيمِ ، هِيَ المَطَامِعُ الشَخصيَةُ و النُصوصُ الدَمَويَة التي فُهِمَت باسمِ الله..

تَقولُ جُنِيت لِلطَبيب:

أُسبوعٌ كَامِلٌ مِنَ الرِعَايَةِ بِيدِ النِسوةِ ، و لا أَعلَمُ لِما كُلُ هَذا الاِهتِمامِ ، و ما إِن مَضى الأُسبوعُ حَتى بَرِئَتِ الجِراحُ ، و عَادَ جَسَدي كَمَا كَانَ ، و

لَكِنَ الحُزنَ في قَلبي أبى أَن يَزولَ مِنَ المَشاهِدِ التي رأيتُها .. دَخَلَت عَليَّ إِحداهُنَّ و جَلسَت بِجانِبي ، و أخَذَت تُسَرِحُ شَعري بِأصَابِعها ، نَظَرت إِليَّ قَائِلَةً:

ـ هَذِهِ اللَيلَةُ لَيلَتُكِ..

أَنا لَمْ أَفهَم ماذا تَقصِدُ بِسَبَبِ صِغَرِ سِني ،

ـ و بَعدَ هَذِهِ اللَيلَةِ سَتَقُومينَ بِخِدمَتِنا بِحُكمِ عُبودِيَتِكِ لِزَوجِنا..

قَبلَ مَغِيبِ الشَمسِ أَمرنَني أَن أَغتَسِلَ ، و أُنَّظِفَ جَسَدي ، و فَورَ الاِنتِهاءِ ، جَفَّفنَ شَعري و أَسدَلنَهُ ، و أَمرنَني أَنْ أرتَدي لِباساً مَائِعاً مُمَيَعاً ، طَيَّبنَني و بَخَّرنَني و وَضَعنَّ شَيئاً مِنَ المَساحيقِ على وَجهي ، و طُرِقَ البابُ فَجأَةً:

ـ هَل عَروسي جَاهِزَةٌ.. !!

لَقَد سَقَطَ قَلبي ، عروسُ ماذا يا رَبَّاهُ!!

ـ نَعم يا أبا البرَاءِ دَقائِقَ و بِإمكَانِكَ أَنْ تَختَلي بِها..

رُحتُ أَصرَخُ و أَبكي حَتَّى سَالَ مَعَ الدُموعِ كُحلُ عَيني الذِي وَضعنَهُ حَولَ جَفنَّي ، لَقَد وَصَلَ الصَوتُ إلى ذَلِكَ القَذِرِ ، حَتى دَفَعَ البابَ بِقسوَةٍ و دَخلَ غاضِباً ، بِوجهِهِ الشَيطاني ، وَقفَ أمامي:

ـ اِنصَرِفنَ أَنا سَوفَ أتَصَرَفُ مَعها..

خَرَجنَ النِسوَةُ ، و بَقيتُ أمَامَهُ أرتَجف و أَسناني تَصطَكُ خَوفاً مِن مَنظَرِهِ المُرعِبِ ، رَجُلٌ مُسِنٌ بِسِنِ وَالِدي ، قَالَ لي آن ذَاك:

ـ يا حفصة لا تَخافي أنا زَوجُكِ الأن.. !!!

و ما إن قَالَ هَذِهِ الكَلِمَةَ حَتى أُغمي عَليَّ ، رَاحَ يوقِظُني بِالماءِ و الصَفعِ حَتى استَيقَظتُ ، و ما إن هَدْأَ مِن رَوعِي ، حَتى خَلَعَ ثِيابَهُ و جَردَني

بِالقُوَةِ ، و سَلَّ مَبرَدَهُ و بِينَ الدَفعِ و الرَدِ ، وَقعتُ بينَ ذِراعيهِ و اغتصَبني عِنوَةً بِلا حَياءٍ و لا خَجَلٍ..

عَلى فِراشِهِ القَذِرِ سَالت دِمائي ، و خَمَدَت شَهوَتَهُ ، و سَقَطتُ مَغمياً علَيَّ مَرةً أُخرى..

حَاوَلَ إِيقاظي و لكِن هَذِهِ المَرَةَ لَيسَت كَكُلِ مَرَةٍ ، صَرَخَ لنِسائِهِ مُستَنجِداً ، دَخَلن مُسرِعاتٍ ، حَاوَلن إِيقاظي و لَكِن لَمْ يُحَالفُهُنَّ الحَظُ..

اِرتَدى ثِيابَهُ مُسرِعاً و احَضَرَ سيارَتَهُ و حَمَلَني بَعدَ أَن غُطِيتُ بِغِطاءٍ كَامِلٍ لا يُطِيقُهُ الأَموَاتُ ، و اتَجَهَ بي إِلى المَشفَى الَميداني التَابِعِ لِتَنظيمِهم الإِرهابيِّ..

حَمَلَني مُسرِعاً إِلى غُرفَةِ الإِنعاشِ وأَتَت طَبيبَةٌ نِسائيَةٌ حاوَلَت مَعي جَاهِدَةً ، و لَكن اِضطُرَت أَن تَترُكَني في العِنايَةِ المُرَكَزَةِ لِتَدَهورِ حَالَتي

النَفسِيَةِ و الجَسَديَةِ و بِسبَبِ النَزيفِ الذي لِمْ يَتَوقف ، و أَمَرَت ذَلِكَ الإِرهابي أَن يَعودَ إِلى مَنزِلِهِ و يأتي غَداً..

رَحَلَ القَذِرُ ، و بَقيتُ وَحدي في العِنايَةِ المُركَزَةِ ، كَانَت الطَبيبَةُ مُنَقَبَةً ، لا يَظهَرُ مِنها سِوى عَينَيها..

قَالَت لي بِلغَةٍ أَفهَمُها:

ـ حَمداً للهِ على سَلامَتِكِ حَبيبَتي..

يا رَبَّاهُ مَاذا أَسمَعُ إِنَّها لُغَةُ الأُمومَةِ ، مَن أنتِ؟

ـ هُوششش أنا طَبيبَةُ قَريَتِكُم في كُوردُستان أنا اعرِفُ أُمَكِ و أَهَلَكِ ..

يُرسِلُ الله لَكَ دائِماً جُنوداً لَمْ تَكُن بِالحُسبانِ..

رُبَّما إِنَّها تَعرِفُ أَهلي ، و لَكِن ما نَفعُ مَعرِفَتَكِ بِهِم و هُم الآن قَد رَحَلوا إِلى السَماءِ ،

وَحدَهُ الله مَن يَعرِفُ آلامَكَ..

مَهما اِنكَسَرتَ و انحَنَيتَ و خَضعَتَ..

يأتيكَ اللهُ بِروحِهِ و رَحمَتِهِ و أَمَلِهِ و غَوثِهِ و نَظرَتِهِ..

يُربِّتُ على قَلبِكَ و يُهدِىءُ مِن رَوعِكَ ، و يُجَرِّدُكَ مِنَ الخَوفِ ، و يَغسِلُ رُوحَكَ بِالأَمانِ ، و يَكسوكَ بِالسَكينَةِ ، و يَسقيكَ مِن كَأسِ بُغيتِهِ ، و يُّجَفِفُ جِراحَكَ بِعينِ رِعايتِهِ ، و يَسكُبَ على خِدَشِ تَأوهِكَ بَلسَمَ تِرياقِهِ..

لا يَهجُرُكَ حَتى لَو هَجَرتَهُ..

تَبتَعِدُ عَن نُورِهِ إِلى ظُلمَةِ أَهوائِكَ ، يأتيكَ بِخيرِهِ و فَضلِهِ..

تَنصَرف مِن طَاعَتِهِ إلى مَلذَاتِكَ ، يقُبِلُ عَليكِ بِكُلِهِ..

لا يَدَعُكَ مَهما هَبطَت أو عَلَوتَ ، هُوَ مَعَكَ يسَمَعُ و يَرى ، مَلجئٌ لِلحَيارى ، مَأوى لِلضِعافِ ، رُكنٌ لِلمَسَاكينِ..

يَعتَقِدُ بَعضُهُم بِأَنَّ طَيفَهُ مَصلوبٌ على خَشَبٍ ، و يَظُنُّ آَخَرونَ بِأنَ بَيتَهُ مِن حَجَرٍ ، و يَعتَقِدُ آَخَرُونَ بِأَنَّهُ مُنَحَلٌ بِالأَجسادِ الضَعيفَةِ ، و يَقولُ آَخَرونَ بِأَنَّهُ مَمَزوجٌ مَعَ الهَواءِ ، و هُنَاكَ مَن قَالَ بِأَنَّهُ مُستَوٍ في الفَضَاءِ ، كَلامٌ وإعتِقاداتٌ و ظُنُونٌ و دِراساتٌ و أَفكارٌ و هَلُمَّ جَراً..

هَل يَنتَظِرُ الرَبُّ مَعرِفَةَ مَقَرِهِ!!

تَحيَةٌ لِمَنْ عَاشَ مَعَ الرَبِّ بِصوتِهِ و آَلَتِهِ و مَالِهِ و مَقامِهِ و مَقَالِهِ..

جَلال الدين الرُومي..

عَرَفَ الرَبَّ بِنَايهِ ، اِختلى بِذاتِهِ ، و حَبسَ جَسدَهُ و أَطلَقَ مَعَ مَعزوفَةِ النَاي رُوحَهُ ، دَارَتِ النَفسُ في سَاحَةِ الرَبِّ خَاشِعَةً ، فَأَنزَلَ الرَبُّ سَكينَتَهُ و خَشيَتَهُ ، جُرِدَ الرُومي مِن سُمومِ الوَعِيدِ و التَّهوِيلِ ، حَتى صَفَت نَفسُهُ ، و أُغدِقَت ذَاتُهُ بِالهَيبَةِ و الوَجَلِ .. فَكَانَ إِماماً لِآلَةِ الرَبِّ ، يَعزِفُ لِلراقِصينَ ، يُراقِصُ المَسَاكينَ ، فَأنارَ فِكرُهُ العَالمِينَ..

الأُم تِريزا..

عَرَفَت الرَبَّ بِحِسِها الذِي فَقَدَهُ العالَمُ ، نَقَّبَت عَنِ الرَبِّ جَاهِدَةً ، حَتى وَجَدَتْهُ في بُطونِ الفُقراءِ و البُؤساءِ ، رَفَعَت لِلرَبِّ لِواءَ جِهادِها ، فَأطعَمَت الجَائِعَ ، و كَسَتِ العَارِي ، و أغَاثَتِ المَلهُوفَ ، عَالجَتِ السَقيم ، فَبَنَت لِلرَبِّ المَياتِمَ و المَصَّحاتِ و مَآوي لِلعَجَزِةِ و المُشَّرَدينَ و الجائِعينَ..

فَعِبادَةُ الرَبَّ لَيسَت بِبِناءِ الصَوامِعِ و المَعابِدِ و البُيوتِ..

عِبادَةُ الَربِّ بِإخمَادِ الفِتَنِ و تَجفيفِ مَنَابِعِ الدِماءِ و الدَمَارِ و القَتلِ و الإِرهابِ ، فَكَمْ مِن أشياءٍ قَتَلت و يَحسِبُ صَانِعُوها بِأَنَّهَا تَصُبُ في مَصلَحَةِ الرَبِّ..

دائِماً ما كُنتُ أَعتَقِدُ بِأنَّ أَيَةَ حَربٍ بِدايَتُها فِكرَةٌ و نِهايتُها حُروبٌ عالَميَةٌ .. كُلَّما تَقَدَمَ بِكَ الزَمَنُ كُلَّما اِتَسَعَت ساحَةُ الفِتَنِ..

الفِكرَةُ تَقتُلُ..

و الكَلِمَةُ تَقتُلُ..

و النَظَرَةُ تَقتُلُ..

و عَدمُ المُبَالاَةِ يقتُلُ..

و الاِهتِمامُ فِيما لاَ يُستَحَقُ الاِهتِمامُ بِهِ يقتُلُ..

كَمْ يُوجَدُ في المَقابِرِ مِن أُنَاسٍ أَبرياءٍ قد حَثَّتِ النَظَراتُ و الكَلِماتُ على أجسادِهِمِ التُرابَ !! ، بِكَلِمَةٍ فُلانٌ قَتلَ فُلاناً غَيظاً ، بِنَظرَةٍ فُلانٌ أَنهى فُلاناً حِقداً .. إِنَّ النَفسَ البَشَرِيَةَ فيها مِنَ الخَيرِ و الحُبِ ما يَدعوكَ لِأَنْ تَقولَ : مِن أينَ أتى هذا الكَمُّ الهائِلُ مِنَ الشرِ؟

أَتَى مِنَ المُجتَمَعِ ، و مِن اِستِنقاصِ الغَيرِ، و مِن إِهمالِ أَصحابِ التَمَيُزِ و الاِهتِمامِ بِمَن لا يَستَحِقُ ، والأحقادُ و الحَسَدُ و الأَمراضُ النَفسيَةِ ، فَتَثُورُ البَشَرُ على بَعضِها بِالأَفكَارِ و القَتلِ و النَهبِ و النَصبِ و الهَدمِ..

تَقولُ جُنِيت مُكمِلَةً حَدِيثَها لِلطَبيبِ الذِي أَصابَهُ الاِحتِباسُ اللَفظيُ أَمَامَ الأَحداثِ التي قَاسَتها:

ـ يا أَيُّها الطَبيبُ ، لَقَد غَرِقتُ في نَومٍ عَميقٍ تِلكَ الليلَةُ مِنَ التَعَبِ ، و لكِن في مُنتَصَفِ الليلِ جَأَت تِلكَ الطَبيبَةُ تُحَرِكني و تَهمِسُ بِصَوتٍ مُنْخَفِضٍ:

ـ جُنِيت .. جُنِيت .. اِستَيقِظي .. اِستَيقِظي حَبيبَتي!!

هَيَّا اِنهَضي ، اِرتَدي هَذا الزَيَّ و بَعدَ قَليلٍ سَوفَ آتِي إِلَيكِ و أَخُذَكِ..

أَنَا كُنتُ في قِمَةِ خَوفِي حِينَها ، مَاذا أَفعَلُ؟ شَيءٌ في دَاخِلي زادني قُوَةً ، شَجَّعَني على أَنْ أَئْتَمِرَ لَها..

اِرتَدَيتُ ثَوباً اسوَداً طَويلَ الاكمامِ ، و خِماراً أسوَداً ، و جُعبَةً كُتِبَ عليها : الحُسبَةُ..

إِنَّها النـكسَةُ و لَيسَتِ الحُسبَةُ..

إَنَّها كَارِثَةُ المرأَةِ في تِلكَ البِلادِ المُنغَمِسَةِ بِالإساءَةِ و الاِستِبدادِ ،إِنَّ المرأَةَ في أَعيُنِهم

القَاصِرَةِ مِن أَشَدِ الأَعداءِ لِفِكرِهم ، فَلا مَكَانَ لَها ، مَحوا وجُودَها بِكُلِ وسَائِلِ التَعَسُفِ و الجَورِ..

إِنَّها لا تَصلُحُ إِلا أَنْ تَكونَ مُرَبِيَةً و خَادِمَةً و عَبدَةً تُباعُ و تُشترَى في أَسواقِ المُهورِ و الزَواجِ ، تُسحَبُ مِن بَطنِ أُمِها و تُباعُ إِلى بَيتِ زَوجِها و تُودَّعُ إِلى القَبرِ و الدُودِ ، فَلا تَرى مِنَ النُورِ شَيئاً البَتَةَ ، ظُلمَةُ الأَرحَامِ و مِنْ ثُمَّ ظُلمَةُ الأُبوَةِ و مِن ثُمَّ ظُلمَةُ الزَوجيَةِ و أَخيراً ظُلمَةُ اللُحودِ..

صَوتُها عَورَةٌ ، و وَجهُها عَورَةٌ ، و خُروجُها عَورَةٌ ، و دُخُولُها عَورَةٌ ، أَلِهَذا القَدْرِ يُخشَى مِنها ! ، إِنَّها ضَحيَةُ التَطَرُفِ الفِكري الطائِفي ، و هُنَاكَ مَا هُوَ أكثَرُ ظُلماً مِن هَذا كُلِهِ ، ضَحِيَةٌ لِلعاداتِ والتَقالِيدِ و العَالَمِ الذُكوري الاِزدِواجي..

إِنَّهُم بِالحَقيقَةِ يَخشَونَ مِنَ المَرأَةِ..

بِالحَقيقَةِ إِنَّ المَرأَةَ طَاقَةٌ و ثَورَةٌ إِن اِنبَجَسَت و تَفَجَرَت ينابيعُها ، سَيَسيلُ عِلمُها و إِبداعُها إِلى كُلِ فِكرٍ يابِسٍ ، إِلى كُلِ قَلبٍ جَافٍ ، إِلى كُلِ وَطَنٍ قَاسٍ ، لَقَدْ أَثبَتَت وجُودَها في مَيادِينِ الدُوَلِ التي أَنصَفَت إِبداعَها و حَذَاقَتَها ، فَأَخرَجَت لِلمُجتَمَعاتِ المُقسِطَةَ ، الطَبِيبَةُ و المُهَندِسَةُ و المُعلِمَةُ و المُفَكِرَةُ و العَالِمَةُ و المُتَعَلِمَةُ ، و أما المُجتَمَعاتُ المُتَخَبِطَةُ الخَشِنَةُ التي لَمْ تَفهَم مِنَ النُعُومَةِ إِلا أَسِرَةَ النِساءِ ، لِلِيالي العُطلِ الرَسمِيَةِ..

إِنَّ هَؤلاءِ القَومَ مَرضَى بِمَقاييسٍ تُؤهِلُهُم لِدُخولِ مَصَّحٍ نَفسيٍ ، و لَو شَخَّصَتَ أَمرَاضَهُم لَوجدتَ بِأَنَهُم يُعَانُون أَزمَةَ ثِقَةٍ بينَهُم و بَينَ نِسائِهم ، فَهُم لا يَثِقونَ بِنِسائِهم على الإِطلاقِ ، فَالمَرأَةُ مَكانٌ لإِفراغِ الشَهواتِ و لِلاستعمَالاتِ العُبودِيَةِ في

البِيوتِ الذُكُورِيَةِ ، إِنَّ الأُنثَى عَينَةٌ في المِجهَرِ الذُكُوري تُراقَبُ و تُرصَدُ..

تُحَاكُ ضِدها المُؤتَمراتُ و المُؤامَراتُ ، فِكرياً و عِرقياً و طَائِفياً و حَتى سِياسياً و اِقتِصادياً ، إِنَّ تِلكَ العُقولَ المُشبَعَةَ بِالنَحسِ و الشُؤمِ ضِدَ الأُنثى هِيَ العَارِيَةُ و الضَالَةُ و الشِريرَةُ..

اَنَّ هَذِهِ العُقولَ هِي العَورَةُ ، ووُجودُهُم عَورَةٌ ، و فِكرُهُم عَورَةٌ ، و بَقاءُ قَوانِينِهم عَورَةٌ ، المَرأَةُ جَوهَرَةٌ نَقيَةٌ نَاصِعَةٌ بِالطُهرِ ، و لولا وجُودُهَا لَمْ تَكُن مَوجُوداً يا ضالَ الفِكرِ و المَنطِقِ..

إِنَّها أُمُكَ و أُختُكَ و أَسَاسُ وجُودِكَ..

و بِسَبَبِ الاِنحِدَارِ المُتَخَلِفِ لِقِلَةِ الثِقَةِ بِالمَرأَةِ ، زَادَ حَبسُها و الضَغطِ عَلى حُرِيَتِها

إِنَّ العَاقِلَ الذِي فَهِمَ قَضِيةَ الأُنثى العَربيَةَ بِشكَلٍ خَاصٍ و قَيَمَّ شَخصِيتَها تَحتَ مِجهَرِ الإِنصافِ لَهوَ العَقلُ الرَاشِدُ الذِي تَحَرَرَ مِن إِرهاصاتِ الجَاهِلِيَةِ العَالِقِ أَثَرُها في الأَدمِغَةِ و القُلوبِ...

السُؤالُ الذِي حَيَّرَ أربابَ العُقُولِ! ..

ما هِيَ هَذِهِ المُعجِزَةُ التي سَتصنَعُ المُسَاوَاةَ بينَ الكَائِنِينِ على وَجهِ هَذِهِ الأرضِ.. !!

العَقلُ هُوَ قَائِدُ المُعجِزاتِ أَمَامَ العَواطِفِ العَمياءِ ، فَإِنْ حُكِّمَ العَقلُ سَتَسقُطُ كَثيراً مِنَ النُصُوصِ التي نُطلِقُ عَلَيها بِالمُسَّلَماتِ مِن أَعيُنِ الرَعيَةِ المَخدوعَةِ و المَغلوبِ على أَمرِها ، إِنَّ العَواطِفَ أَضَاعت دُعَاةَ الخُرافَاتِ و الأوهَامِ و أَضَاعَت مَنْ دَبَّ على دَربِهم ، و أَضَاعوا أَوطَانَهُم و أَفكَارَهُم و أَرواحَهُم في سَبِيلِ مُعتَقداتِهم التي يُحَّرَمُ عَلَيهم الخُروجُ مِنها..

الرُؤىَ الفِكرِيَةُ المَبنيَةُ على أَساساتٍ مَنطِقِيَةٍ هِيَ كَفيلَةٌ بِإِعطاءِ كُلِ ذِي حَقٍ حَقَهُ في بِناءِ مُجتَمَعٍ خَالٍ مِن أَفكارٍ هَدامَةٍ قَدْ يَذهَبُ ضَحيَتُها أُناسٌ لا ذَنبَ لهُم..

مأَساةُ الأُمَمِ التي اِندَثَرت بِأَنَّها عَطَّلَت لُغَةَ العَقلِ ، و قَدمَّتَ عَواطِفَها قُرباناً لمَطَامِعِهم على المَنطِقِ و الفِكرِ السَلِيمِ ، أُنظُر إِلى تِلكَ الدوَلِ العِملاقَةِ التي أُبِيدَت و تَلاشَت و أَضْحَت ضَحِيَةً لِتَارِيخٍ يُقَرأ و رُبمَا يُشتَمُ أو يُفتَخَر ُبِهِ ، اِسألِ السِنينَ التي خَلَت ، و نَادي بين أَروِقَةِ الوَرَقِ و أُصرُخ بِأعلى وَجعِكَ:

أَينَ أَنتُم.. !!

أُمَمٌ أُبِيدَت ، و قَبائِلٌ اَندَثَرَت ، و حَضَاراتٍ اِنقَرَضَت ، و وُجُوهٌ تَلاشَت ، لِأَسبابٍ فِكرِيَةٍ مُغَيَبَةٍ عَنِ العَقَلِ..

إِنَّ الأُمَمَ التي تَرِثُ أَفكَارَ أجدادِها مِن غَيرِ تَعدِيلاتٍ فِكْرِيَةٍ ، و لا تَقويمٍ عَقلي ، فَإِنَّ مَصيرَها كَمَصيرِ الأُمَمِ الفَانيَةِ ، سَتُدَاسُ عَبرَ تَقَدُمِ الزَمَنِ ، لِأَنَّ العَالَمَ أَصبَحَ قَرِيَةً صَغيرَةً في خِضَمِّ التَجرِبَةِ الإِلكِترونيَةِ ، و مِنَ الوَاضِحِ بِأَنَّ انتِشارَ الأخبارِ السَاخِنَةِ أوِ المَائِعَةِ و حَتى الفَاضِحَةِ لَمْ يَعُد شَاقاً أبَداً ، كُلُ ما عَلَيكَ فِعلَهُ هو أَنْ تَضَعَ على حِسابِكَ الإِلكِتروني كَالفَيسبُوك أو تُويتَر أو الإِنستِغرام أَيُ خَبَرٍ يُشعِلُ فِتنَةً أو يُخمِدُها ، و سَتَرى الخَبَرَ يَنتَشِرُ كَالنَارِ في الهَشِيمِ..

لَمْ تَصمُت جُنِيت أمَامَ دَهَشَةِ الطَبيبِ التي لَمْ يَستَمِع إِلى مُعاناةٍ كَمُعَاناتِها و لا حَتى في أَفلامِ الرُعبِ ، رَاحَ الطَبيبُ يُلَقِبُ عَناءَ حَديثَها ، و يَتَصَفَحُ التَعَبَ في طَّياتِ جَفنَّيها ، تَقولُ جُنِيت:

ـ لَقَد اِرتَدَيتُ السَوَادَ في تِلكَ اللَيلَةِ المُكتَحِلَةِ بِالدُجنَةِ ، و أَمَرَتني الطَبيبَةُ أَنْ أَكُونَ بِرِفقَتِها في سيارَتِها ، و أَنْ أَلتَزِمَ الصَمْتَ ، لَمْ أَكُن أَعلَمُ إِلى أَينَ نَمضي ، و لَكِّنَ تَوازُنَ الخَوفِ مَعَ ذَبذَباتِ الأَمَانِ التي تَتَلظَى في صَدْري تَقولُ لي لا تَقلَقي سَتَكونِينَ على مَا يُرامِ..

اِتَجَهتُ مَعَ الطَبِيبَةِ نَحوَ البَوابَةِ الخَلفيَةِ لِلمَشفَى المَيداني التَابِعِ لِلتَنظيمِ الإِرهابي ، و رَكِبنا السيارَةَ مَعاً ، كَانتِ الطَبيبَةُ التِي لَمْ تَكشِفْ لي عَن وَجهِها و لا هُويَتها بِأَلفِ رَجُلٍ..

كُنتُ أَظُنُ بِأَنَّ الشَجَاعَةَ هِيَ بِضاعَةٌ مُتَعلِقةٌ بِالرِجَالِ ، و لا يُمكِنُ لأَي أُنثى في هَذا العَالَمِ أَنْ تُضاهي بِحَيائِها الذُكُورَ ، و لَكن هُنَاكَ مَوَازِينٌ إِن أُدخِلَ فيها العَدَلُ سَترى العَجَبَ العُجَابَ ، الشَجَاعَةُ و العَدلُ بِدَايَةُ كُلِ نَهضَةٍ نِسائيَةٍ ضِدَ

جَبَروتِ الرِجَالِ و قَهرِهِم المُتَسَلِطِ على وَهَنِ النِساءِ..

رَكِبنا السيارَةَ مُتَجِهينَ إلى المَجهُولِ..

أوقَفَتنا حَواجِزٌ عَديدَةٌ في طَريقِنا ، وما إنْ يَعرِفوا بِأَنها طَبيبَةُ تَنظِيمِهِم الإرهابي حَتى يَترُكوها و شَأنَها ، إنَّها أُنثى التُرابِ الجَريئَةِ و الرِمَالِ المُغوارَةِ ، لَمْ تَرتَعِش و لَمْ تَضعُف ، في مَلامِحِ عَينِها المَكسوِ بِالخِمَارِ ثِقةُ الأبطَالِ ، و بَسالَةُ القَادَةِ ، و بينَ خَوفٍ و شَجَاعَةٍ رُحتُ أُبرِمُ مَعَها أوَلَ سُؤالٍ:

ـ دُكتُورة..

ـ نَعَم..

ـ إلى أَينَ نَحنُ مُتَجِهونَ..

ـ سَتعَرِفينَ لاحِقاً لا تَستَعجِلي يا حَبيبَتي..

على ما أَظُنُ بِأَنَّها نَفَذَت مِن تِلكَ المَدِينَةِ المُنغَمِسَةِ بِالظُلمِ و الظَلامِ ، مَدِينَةٌ لَيست كَبَقِيَةِ المُدُنِ .. حُدودُها تَتَقاطَرُ دَماً ، و في أَزِقَتِها تُسفَكُ الدِمَاءُ و تُبتَرُ الرُؤوسُ ، و تُجَزُ الأَعضَاءُ بِلا شَفَقَةٍ و لا رَحمةٍ ، عَادِلُهُم بَاغٍ ، و مُنصِفُهُم جَبارٌ ، كُلُ ما فِيها يَدعُو إِلى المَوتِ ، تَحتَ تُرابِها جُثَثٌ مُكَدَسَةٌ ، و فَوقَ ثَراها أقدَامٌ مُستَبِدَةٌ ، لا رَحمَةَ في ذَخائِرِهِم و لا في ضَمَائِرِهِم..

الرُعُبُ في كُلِ مَكَانٍ ، و الكُلُ خَائفٌ مِنَ الكُلِ ، فَالكُلُ ظَالمٌ و الكُلُ مَظلُومٌ..

أَيَةُ نُطفَةٍ مِنَ البَشَرِ هَؤلاءِ ! ، مَا هِيَ أَنَواعُ الأرحَامِ التِي حَمَلَت بِهم ! ، و ما الفِكرُ الذي تَشَرَبَوا مِنْهُ ليكونَ صِنفَهُم مِنَ الأشرارِ ، لو فَتَّشتَ في تَفَاصِيلِ مَلامِحِهم لَوجدْتَ بِأَنَّها مُرهَقَةٌ ، مُتعَبونَ مِنَ القَهرِ و الظُلمِ الذي يُمَارِسُونَهُ ضِدَ

الأَبرياءِ ، و يُقَالُ بِأَنَهُم لا يُرِيدونَ الدُنيا ، بَل يُقَاتِلونَ و يُقتَلونَ و يَظلِمُونَ و لا يُظَلمُون لَهثاً إِلى الجَنَةِ!! ..

الجَنَةِ!!

يا رَبَّاهُ .. مَا هَذِهِ الحَمَاقَةُ التي يَسعَى إِليها هَؤلاءِ القَومُ ، فَهَل السَبِيلُ إِلى الآلِهَةِ بِهَذِهِ الطَرِيقَةِ الإِجراميَةِ.. !!

مُجرِمونَ بِكُلِ مَعنى الكَلِمَةِ ، لَمْ يَفهَموا مَن هُوَ الله أبداً..

إِنَّ اللغَةَ التي فَهِموا اللهَ بِها هي ، السُبُلُ المُؤَديَةُ إِلى الذَبْحِ و التَنكيلِ و جَزِّ الأعنَاقِ و الأطرافِ و تَيتِيمِ الأطفَالِ و سَبِي النِسَاءِ و إِستِرقاقِ الرِقابِ بِغَيرِ حَقٍ و لا عَدلٍ..

مَا هُوَ المَعنَى أَنْ تُخلَقَ حُراً.. !!

و مِن ثُمَّ تَجد نَفسَكَ مُحاطاً بِالأَشرارِ و المُجرِمينَ و القَتَلَةِ ، لِتُطلَقَ عَلَيكَ صِفَةُ العُبُوديَةِ ، و لِتَكُن خَادِمـاً لَهُم و لمَطامِعِهم ، فَتُضرَبُ و تُهانُ و تُدَاسُ كَرامَـتُكَ و تُغتَصَبُ فَقَطْ لأِنَكَ عَبدَاً عِنْدَهُ ، و كُلُ مَا يَجري لَكَ هُوَ تَشرِيعٌ بِاسمِ الرَبِّ..

لَقد سَارت بي الطَبيبَةُ إِلى أَنْ اِختَفَت مَدينَةُ الظُلمِ و الظَلامِ و رَاياتِها السَوداءِ ، قَبلَ أَنْ نَصِلَ إِلى أَحَدِ الحَواجِزِ قَالتْ لي الطَبيبَةُ:

ـ اَبنَتي جُنِيت اِخلَعي هَذِهِ الثيابَ القَـذِرَةَ..

يا رَبَّاُه إَنَّها تَدعُوني بِابنتِها !! .. و لِما تَأمُرُني بِخَلعِ هَذِهِ المَلابِسِ !! ، مَاذَا يَجرِي يَا تُرى.. !!

ـ حَسنَـاً..

لَقد إِئتَمَرتُ لِأَمرِها ، و خَلعتُ السَوادَ ، كَمَا تَخلَعُ السَمَــاءُ غُيومَها ، لَقَدْ جَعلَتني أَخلَعُ الخَوفَ مِن قَلبي ، كَمْ تَمتَلِكُ هَذِهِ المَرأَةُ مِنْ جُرأَةٍ.. !!

قَالت لي:

ـ استَمِعي إِليَّ جَيدَاً بُنَيَتي جُنِيت ، الآن لَقَدْ خَرجَنا مِن تِلكَ المَدِينَةِ المُظلِمَةِ ، و أَنا غَامَرتُ بِنَفسي لِإِنقَاذِكِ و إِنَقاذِ نَفسي مِن هَذا الكَابوسِ المُرعِبِ ، إِنَّ تِلكَ الحُدُودَ التي تَرِينَها هِيَ الحُدُود التُركيَةُ ، سَنَدخُلُ تِلكَ المَدينَةَ الآَمِنَةَ لِكَي نُسَافِرَ مَعاً إِلى تُركيا ، و أُريدُ مُسَاعَدَتَكِ فَقَط لِأَنَّكِ تُشبِهين اِبنَتي التي قَتَلها ذَلِكَ التَنظِيمُ المُجرِمُ ، لا تَقلَقي بُنَيَتي ، سَيكونُ الأَمرُ سَهَلاً و لَنْ يكونَ هُنَاكَ أَيُّ شَيءٍ تَخَافينَهُ بَعدَ اليَومِ..

الأَمَان..

لَمْ يَعُد مِنَ السَهلِ أَنْ تَجِدَ الأَمان في هَذا الكَونِ ، أَنْ تَخرُجَ مِن جَحِيمِ المُجريمينَ إلى جَنَةِ الإِنسانيَةِ فَهَذِهِ هِيَ المُعجِزَةُ العَظيمَةُ التي لَطَالَما سَعىَ إِلَيها مَن يَعشَقُونَ السَلامَ..

لَمْ يُصَدِقِ الطَبِيبُ مَا يَسمَعُهُ ، فَبَينَ دَهشَةٍ و شَهقَةٍ يَستَمِعُ إلى أَغرَبِ قِصَةٍ سَمِعها في حَياتِهِ ، فَلقَد كَانَت التَفَاصِيلُ أقوى مِما يَتَصَوُر ، إِنَّهَا كأَحَدِ المَشَاهِدِ الخَياليَةِ التي مَرَّت بِها الحُروبُ العَالميَةُ القَاسيَةُ..

و لَكِّنَ دُموعَ المُتَحدِثَةِ ، و اِرتِجَافِها المُتَكَرِرِ كَانَ يَشي لَها بِصِدقِها ، إِنَّهُ الحَاذِقُ في عَالَمِ النُفوسِ البَشَرِيَةِ ، فَلا يُمكِنُ أَنْ تَفُتَهُ فَائِتَةٌ ، و على الرُغمِ مِنَ المُغالطاتِ الحَركِيَةِ التي لَمْ يَعي فَلسَفَتها ، و حِدَّةَ النَبرَةِ في الأَلَمِ ، إِلاّ أَنَّهُ أُحِيطَ بِالاكتِئابِ..

اِنصافَاً لِمُصَابِها..

اَلاّ أَنَّ جَمَالهَا كَانَ طَاعِنٌ بِالفِتنَةِ ، و لَكِنَّ البَشرَ دَائِمَــاً لا يَكتَمِلونَ ، أَكمَلَت جُنِيت رِوايَتَها عَن سِلسِلَةَ الرُعبِ التي مَرَّت بِهَا قَائِلَةً:

ـ أَيُهَا الطَبِيبُ ، حَاولتُ مِراراً أَن أَنسَى مَا جَرى مَعي ، و لَكِن وَصَلتُ إلى أَنَّ النِسيانَ عِبارَةٌ عَن كِذبَةٍ كَبيرَةٍ نَحنُ صَنعناها ، إِنَّ الإِنسانَ إِذا جُرِحَ جُرحاً بَليغاً و أُخِيطَ بِالخَيطِ و الإِبرَةِ فِإِنَّ أَثَرَ المَخِيطِ سَيبقَى مَدَى الحَياةِ ، و لَنْ يُسوَى مَعَ الجِلدِ أو يُرَمَمُ ، فَكَيفَ بِمَن عَاشَ أيامَــاً تُعَدُ مِن أيامِ جَهَنم..

اَنَّها لَيسَت جِراحاً و حَسب إِنَّها آثَارٌ سَتبقَى مَحفورَةً في الذَاكِرَةِ مَدَى الحَياةِ ، كَانَت تِلكَ الأَيامُ مِن أقساها رُعبَاً و ضَنكَــاً ، حَاوَلتُ جَاهِدَةً أَنْ أَطوي مَا حَدثَ مَعي ، و أُلقي بِهِ إِلى

الهَاويَةِ ، و لَكن تِلكَ الأَجسَادُ التي قُتِلَتْ على مَرأى عَيني تُلاحِقُني ، و تُطَارِدُ سَعادَتي ، و تَقلِبُ طَاوِلَةَ رَاحَتي ، بِكَافَةِ وَسَائِلِ القَهرِ..

الخَوفُ و القَلَقُ ، و الاكتِئابُ ، و التَوتُرُ ، و المَاضي و الحَاضِرُ و المُستَقبلُ و التَعاسَةُ ، و الحُزنُ ، و حُبُ الإنتِقامِ ، كُلُ هَذِهِ الرِمَاحِ تَحَاوِلُ أَنْ تَقضي عَلَيَّ..

النَوم..

كَم أشتاقُ إِلَيهِ ، كُلُ مَا أُرِيدُهُ هو أن أستَلقي على سَرِيرِي ، تَأتيني صُورَةُ أُمي ، كَيفَ تَمَّ سَحبُها إِلى حُفرَةٍ كَبيرَةٍ ، و كَيفَ شَتَمُوها بَكافَةِ الأَلفَاظِ القَذِرَةِ ، و كَيفَ رُمِيَت بِالرَصَاصِ حَتى وسِّدَت بِالدِمَاءِ..

تُلَاحِقُني أُمي بِطَيفِها ، أَشعُرُ بِأَلَمِها ، تَأتيني بِدِمائِها ، تَسأَلُني عن جَسَدِها ، تُفتِشُ عَني و عَن اِخواتي في كُلِ لَيلَةٍ..

هَل تُصَدِقُ يا دُكتُور بِأَنَّها تأتيني كُلَ لَيلَةٍ بِثَوبِها المَرشُوقِ بِالرَصَاصِ ، و بِدِمائِها التي تَنزِفُ و لا تَتَوقَفُ..

يا لَها مِن مِسكينَةٍ ، و يا بؤسَ ما تَبَقَى مِن عُمُري إِن بَقيتُ على هَذِهِ الحَالَةِ !! ،

لَقَد اِتَخَـذتُ مِنَ الانِطِواءِ سَبِيلاً لِكِي لا يَسأَلَني أَحَدٌ عَن عَائِلَتي ، أذكُرُ عِندَما وَصَلتُ إِلى فيينا مِن بَعدِ أَن قَطَعتُ مَعَ الطَبِيبَةِ التِي كانَت تَحنُو عَليَّ كَابِنَتِها, شَطرَاً مِنَ المَوتِ ، ذَهبنا إِلى أَوَلِ مَكتَبٍ لِلبُولِيس..

و سَلَّمنا أَنفُسَنا إِلى المَركَزِ ، لَقَد شَعرنا بِالأمانِ ، و لَمْ نُصَدِق بِأَنَّنا وَصلنا ، أَيُعقَلُ أَنَّنا في النمسا ،

إِنَّهُ أمرٌ لا يُصَدَقُ ، بَعدَ أَن وَضعونا في غُرفَةٍ و أُغلِقَ عَلَينا البَابُ بِإِحكَامٍ..

أَدخَلُوا إلينا طَعامَ الغَداءِ..

و بَعدَ الإنتِهاءِ مِنَ الطَعامِ ، أَتَت إِلينا فَتاةٌ تَرتَدي ثيابَ البُولِيس ، قَالت:

ـ مَن مِنكُنَ جُنِيت جان.. !!

قُلتُ:

ـ أنَا..

قَالت:

ـ تَفضَلِي مَعِي..

قَادَتني إِلى أحَدِ غُرَفِ التَحقِيقِ ، و جَلَستُ خَلفَ طَاوِلةِ التَحقِيقِ ، و أَتَتني شُرطِيَةٌ أُخرى و رَجُلٌ يَرتَدي الزَيَّ المَدَني ، بِابتِسامَةٍ حُلوَةٍ جمِيلَةٍ مُشرِقَةٍ قَالا مَعاً:

-Hallo

رُبَما هِيَ : مَرحَـباً..

تَحَدَثَ مَعي الرَجُلُ بِاللُغَةِ الكُرديَةِ ، يا رَبَّاه إنَّها لُغَتي ، قَدْ سُرِرتُ كَثيراً وَقتَها ، فَلَمْ اَكُن قَد سَمِعتُ لُغَتي الأُم مُنذُ سَنَةٍ كَامِلَةٍ ، فَلَقَد كانَتِ الطَبيبَةُ عَرَبِيَةً مِنَ العَاصِمَةِ السَوريَةِ دِمَشق ، و كانَت في قِمَةِ الُلطفِ مَعي ، و لَقَد هَرَبَت بي و غَامَرَت بِنفسِها و أعطَتني مِنَ الحَنانِ مَا لَمْ أَجِدهُ عِندَ أَحَدٍ مِنَ العالَمين..

و لَكِن لا شَيءَ يُعوِضُكَ عَن حُضنِ أُمِكَ أبدَاً ، و خُصوصَـاً إنْ كُنتَ قَدْ فَقَدْتَها في الوَقتِ الذي أَنتَ فيهِ في أَمَسِ الحَاجَةِ إلَيها..

نَعَم أَنا أفتَقِدُها جِدَاً ، و الرَبُّ دَائِمَـاً لا يَدَعُكَ وَحدَكَ ، لا بُدَّ أَنْ يُرسِلَ لَكَ جُنودَهُ ليُرمِموا ألمَكَ ، و لَكِن هُنَاكَ آلامٌ لا تُرَمَمْ ، و إنَما تَقتُلُكَ شَيئاً فَشيئاً حَتى النِهايَةِ..

سَأَلَني الرَجُلُ الذي يَرتَدي لِباسَهُ المَدني:

ـ أَنتِ جُنِيت جان.. !!

ـ نَعَم أَنا جُنِيت جان..

ـ أَنتي مِن كُوردْستان العِراق.. !

ـ نَعم أَنَا مِن كُوردُستَان العِراق..

بِينَما كَانَ يَسأَلُني ، كانَتِ المَرأَةُ التي تَرتَدي ثِيابَ البُولِيسِ تَكتُبُ ما أَقولُهُ على الُكمبيوتَر ، و تَبتَسِمُ لي ، كَأَنَّها تُرسِلُ لي ذبذَباتٍ حَنونَةٍ تَحضُنَني و لَكِنْ عَن بُعدٍ..

قَالَ لي.. :

ـ أنا المُتَرجِمُ بَينَكِ و بَينَ مَركَزِ البُولِيس لا تَقلَقي يا صَغيرَتي .. ولَكن كَم عُمركِ ؟..

ـ عُمري سَبعَةَ عَشَرَ سَنَةً..

لَقد كَان عُمُري تَحتَ السِنِ القَانُوني..

ـ حَسَناً ، لِماذا أَتَيتي إِلى هُنا مَعَ تِلكَ الطَبيبَةِ ، و لَمْ تَأتي مَعَ أَهلِكِ !؟..

أنَا هُنَا في هَذِهِ اللَحَظَةِ أُصِبتُ بِغَصَةٍ شَديدَةٍ في الحَلقِ ، كِدتُ أَنْ أَبكي بِشِدَةٍ و لَكِن سَالَت دُمُوعي على خَدَّي بِلا إِذنٍ مِني ، حَتى لاحَظَت عَلَيَّ حُزني الشَديدَ ، و قَامَت مِن خَلف مَكتَبهَا و حضَنتنِي بِقوة شَدِيدة..

أعَاد إليَّ السُؤال قَائِلاً:

لِمَاذَا أتِيتِي إلى هُنَا مَع تِلكَ الطَبِيبَة ، و لَم تَأتِي مَع أهلَكِ !؟..

فَبعدَ أن جَفَفَت لي دُمُوعي تِلكَ المَرأَةُ التي تَرتَدي ثِيابَ البُولِيسِ ، و عَادَت إَلى مَكَانِها قُلتُ:

ـ إِنَّ ذَلِكَ التَنظِيمَ اللعَينَ الذي يَنتَشِرُ في تِلكَ البِلادِ قَتَلَ أَهلي جمِيعَهُم ، في البِدَايَةِ قَتَلَ أَبي و

اِخوَاني الشَباب ، و حَرقوا مَنزِلَنا و هَدَمُوهُ على مَرأى أَعيُنِينا..

لَقَد كَانَ كَابوساً وَاقِعياً مُرعِباً ، و سَاقونا أَنا و أُمي و اَخواتي الإنَاثِ إِلى الشَمَالِ السُورِيِّ ، و استَعبدونا و اغتَصَبونا و قَتلوا وَالَدَتي ، و بيعَت أَخواتي الثَلاثَةُ كُلٌ مِنهُنَّ إِلى رَجُلٍ لا نَعْرِفُهُ..

حَتى جاءَ ذَلِكَ اليَومُ الذي هَرَبَت بي الطَبيبَةُ إِلى حَلب و مِن ثُمَ إِلى تُركيا ، و مَضَينا مَعَـاً إِلى هَذِهِ البِلادِ مِن بَعدِ أَنْ قَطَعنا البَحرَ..

صَدِقني يا دُكتور بَأَنَني مُتألِمَةٌ..

أُرِيدُ أَنْ أُرِيحَ قَلبي ، أُرِيدُ النَومَ ، أُرِيدُ أَنْ اَستَمتِعَ بِهَذِهِ الحَياةِ ، و لَكِن .. كَيفَ أرجُوكَ أَخبِرني. !!

إِنَّ الإِنصافَ و الإِستِماعَ الذِي أَخَذَ مِن وَقتِ الطَبيبِ أَكثَرَ مِن سَاعَةٍ و نِصف ، لَهُوَ مِن أَكثَرِ الأَوقاتِ التي يَستَمِعُ بِها إِلى مُراجِعَةٍ أَتَت كَي تُعَالِجَ تَخَبُطَها النَفسي..

و مَعَ أَنَّ الفَارِقَ الكَبير َبَينَهُ و بَينَها بِالسِن ، إِلا أَنَّهُ أَقدَمَ على اِحتِضَانِها ، و كَأَنَّها هيَ مَن كَانَت تَنتَظِرُ حُضنَــاً كَحُضنِهِ..

إِنَّهُ طَبِيبُ النُفوسِ المَوجُوعَةِ..

أَيُعَقَلُ أَنَّ يَكونَ حُضنَهُ عِلاجَــاً لِذَاكِرَتِها المَحشُوَةِ بِالدِمَاءِ!!

اِحتَضِنها سَيدِي بِعُمقٍ..

شُدَّ ذَوبانَها بِذِراعِ حَنَانِكَ..

اِنَّها هيَ آنِسَةُ الأَلَمِ و اَنتَ سَيدُ الوَقتِ بِدوائِكَ..

كَتَبَ لَها العِلاجَ المُضَادَ لِلإكتِئابِ. Seroxat.

أو مَا يُعرَفُ بسيروكسات أو باركستين أو باكستين أو زَاندول أو باكسيل..

كَمَا أَنَّهُ طَلَبَ مِنها شَيئاً غَريباً ، لَمْ يَجرُئْ أَن طَلَبَهُ لِأَحَدٍ مِن مُراجِعيهِ قَالَ لَها:

ـ يَومُ السَبتِ القَادِمِ يُوجَدُ حَفلٌ كَبيرٌ في دارِ الأُوبِرا ، و أنا أُرِيدُ الذَهَابَ إِلى ذَاكَ الحَفلِ ، هَلْ تَقبَلي أَنْ نَذهَبَ مَعَــاً..

تَلعثَمَت مُتَرَدِدَةً قَائِلَةً:

ـ وَلكِن .. و لَكِن .. و لَكِن..

قاطَعَها الطَبيبُ:

ـ و لَكِن سَتَكُونِينَ سَعيدَةً أنَا مُتأكِدٌ..

أَعطِني عُنوانَ مَنزِلِكِ و غَدًا سَوفَ أُرسِلُ لَكِ شَيئاً رُبَما سَيعُجِبُكِ ، و إِنْ لَمْ يُعجِبْكِ اتَصِلي بِرَقَمِ هاتِفي الشَخصي بَعدَ السَاعَةِ العَاشِرَةِ لَيلاً..

أَمَدَّها الطَبِيبُ بِورَقَةٍ كُتِبَ عَليها رَقَمُ هَاتِفِهِ ، و أَمَدَّتْهُ بِورَقَةٍ كُتِبَ عليها عِنوانُها و رَقَمُ هاتِفِها ..

وَدَّعَتِ الطَبِيبَ بِقُبلَةٍ على خَدِّهِ و رَحَلَت سَعِيدَةً ، كَفراشَةِ البَرارِي التي أُطلِقَ سَراحُها..

في اليَومِ التالي ، يأتي سَاعِي البَرِيد مُحملاً بِصُندُوقٍ كَبِيرٍ ، مُحكَمٍ بِأشرِطَةِ الزِينَةِ..

ـ هَل تَستَطيعي أَن تُوقِعي هُنا آنِسَتي!!

لَقَد وَقَّعَت و استَلَمَت الطَردَ الكَبيرَ..

حَمَلَتهُ إِلى غُرفَتِها بِصُعُوبَةٍ ، و بَدأت تُفكِكُ عُقَدَهُ المُحكَمَةَ ، و ما إِن بَانَت مَوارِبُهُ حَتى كُشِفَ لَها فُستانَــاً كِريستَاليَّ اللَونِ ، و بِتَاجِهِ الفِضيِّ المُرَصَعِ بِالمَاسِ البَرازِيلي ، و بِحِذاءٍ لَبَرِيقُهُ أَشَدُّ

مِن بَريقِ البَدْرِ ، و بِطَاقَةٌ لتَصفيفِ شَعرِها في أَكبَرِ المَحَالِ لِتَصفيفِ الشَعرِ ، و رِسالَةٌ كُتِبَ عَليها انتَظِرِينِي في الساعَةِ الرَابِعَةِ بَعدَ العَصرِ سَوفَ آتي و آخُذَكِ..

يا لَها مِن مُعجِزَةٍ..

و يا لَهُ مِن طَبيبٍ..

وَصَلَ في اليومِ التالي طَبيبُ النُفوسِ المُتَخبِطَةِ بِالمُعجِزاتِ إِلى بَابِ مَنزِلِـها..

و طَرقَ البابَ فَخَرَجَت المَلِكَةُ بِكُلِ أُبَهَتِها ، كَملِكَةِ الفَراشَاتِ ، إِنَّها بِجَمالِها فَاقَت تَوقُّعَهُ ، اِنحنى لِكَمالِها ، و قَبَّلَ يَدَها و سارا مَعَـاً بِسيارَتِهِ إِلى دَارِ الأُوبِرا..

وَصلا إِلى البَوابَةِ فَفَتَحَ لَها الباب شَابٌ في مُكتَملِ الرُجولَةِ ، رَجلٌ على مَقاسِ قُلوبِ الإِناثِ..

شَابٌ أوصَلَهُ الجمَالُ إلى مَرتَبَةٍ مِنَ التَواضُعِ..

ـ عمتِ مَساءاً آنِسَتي ، عمتَ مَساءاً دُكتور..

لَقَد وَقَعَ في قَلبِها شَيءٌ مِنَ العِشقِ ، كَما أَنَّهُ وَقَعَ في قَلبِهِ الشُعورَ ذَاتَهُ..

قَالَ طَبيبُ النُفوسِ:

ـ حَسنًا أنَا أُريدُ أَنْ أُعَّرِفَكِ على المُتَخرِّجِ الجَديدِ في كُليَةِ الطَبِ ، الطَبيب : جُورج..

إِنَّهُ مِن أَشهَرِ الطُلابِ تَفَوقَاً في فَصلِهِ ، و كَما سَأُعَرِفُكَ بِالآَنِسَةِ جُنِيت إِنَّها شابَةٌ كَمَا قُلتُ لكَ سَابِقاً مِن كُوردُستَان العِراق..

إِنَّهُ الطَبيبُ الحَاذِقُ الدُكتُور ڤولف ، المَشهور على المُستَوى الطِبي في مُعالجَةِ النُفوسِ المُحَطَّمَةِ ، فَكَم و كَم جَمَعَ و وَفَّق بَينَ القُلوبِ الجَرِيحَةِ ، و صَنَعَ مِنها نُوراً ، هُوَ الوَحِيدُ في

هَذا الكونِ مَن يَحتاجُ لإِصلاحِ حَياتِهِ و إِعَادَةِ هَيكَلَتِها ، فَرُبَّما لَمْ يَعُد هَنَاكَ لِلعُمرِ بَقيَّةٌ..

دُكتُور ڤولف تُصبِحُ على خَيرٍ يا صَديقي..

أتمَمتُ رِوايَة:

د. ڤولف و 9 نساء

في بَلَدِ الحُرِية و الدِيمُقرَاطِية : النمسا ، في عَاصِمَةِ البِيانو و الكَمنجة : فيينا ،

في مَنزلي الأخضَر ، في الحَي السَابع.

السَاعة : 00 : 03 ، ظُهراً ، في مُنتَصفِ العِشق.

مِن تَارِيخ : 3 / 8 آب / 2017 .